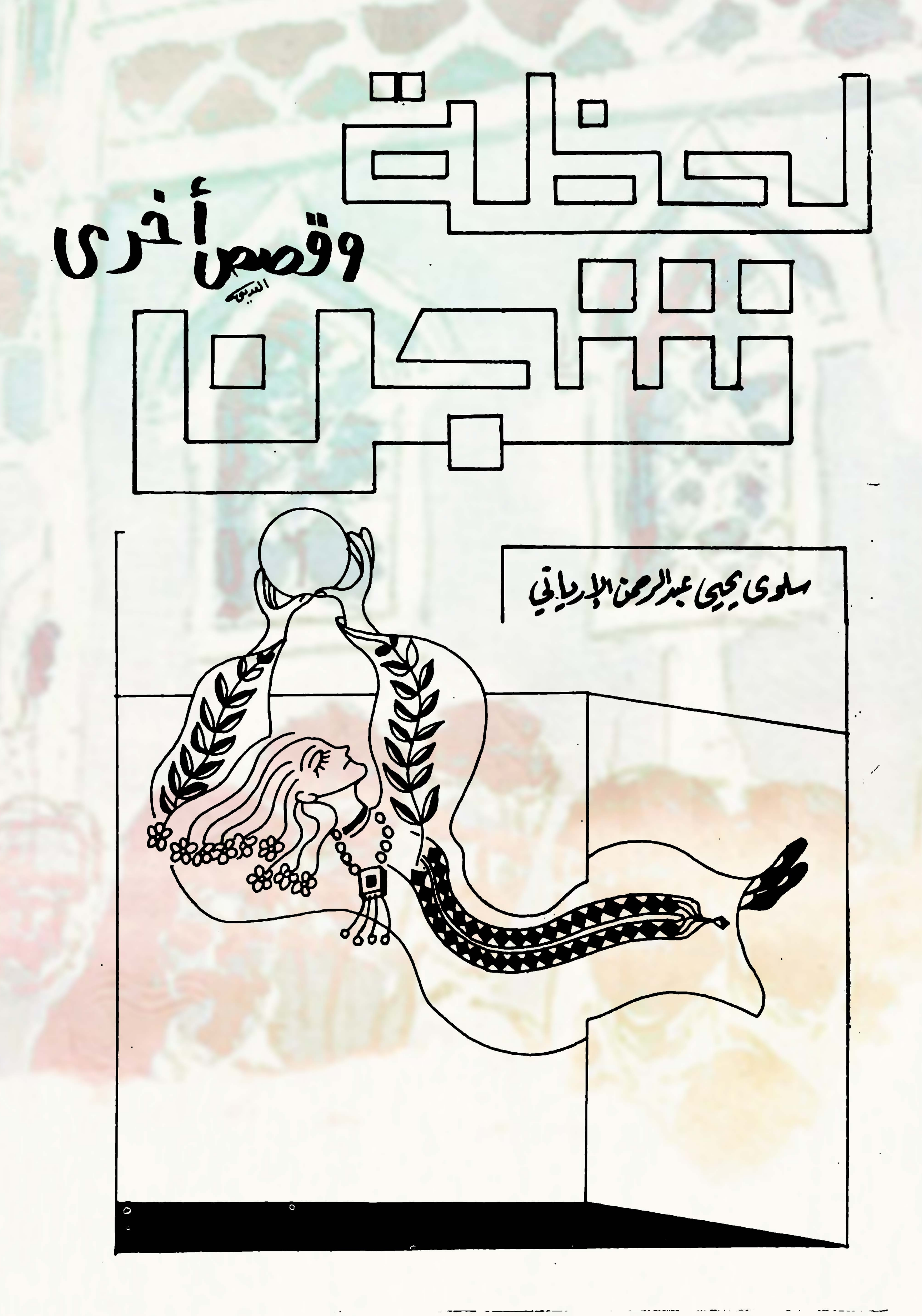
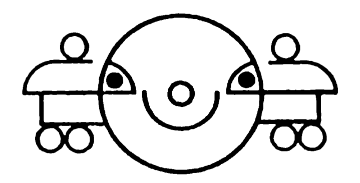

لحظة شجن
وقصص أخرى
سلوى يحيى عبد الرحمن الإرياني



الطبعة الاولى/ ٣٠٠٠
١٩٩٢م

أناشيد الأمل في معزوفة للشجن

بقلم الأستاذ :يحيى علي احمد الارياني

لحظة شجن والقصص الأُخر ، التي تضمها المجموعة الأولى للقاصة الموهوبة المبدعة سلوي يحيى عبدالرحمن الارياني ، قد استجرتني لولهي الخاص بفن القصة القصيرة ، مع اني لست من فرسان النقد الأدبي في هذه الساحة ذات التضاريس الصعبة .

وقد صارت للقصة القصيرة مساحتها في الخارطة الادبية في بلادنا ، وهي تتسع وتتمايز بألوانها وبتعدد أفانينها ، غير اني سوف اتجنب الاقتراب من الدوائر التنظيرية ومعاييرها التصنيفية والانتظامية ، فليس عندي ما أقوله بأن هذه ذات حس واقعي ، وتلك لها نبرة شاعرية ، الا اني سوف اذكركم بأن حداثة القصة القصيرة في الساحة اليمنية لا يمكن أن ينسينا ان لهذا الفن المتألق جذور متوارية بين حكايا جداتنا الطيبات والتي كانت تروى لنا بالامسيات القديمة ولعل من يستدعي صور الذاكرة ، سيلم دون عناء برموزها الدلالية التي تنحبك مع الحكاية المشوقة بغرض بث قيم تربوية تغذي مخيلة الطفولة من حيث لا ندرك اقصدتها . ولعل حكاية الأخوات السبع ، وعناء البحث عن والدهن الغائب تشير الى ما يؤكد لنا ذلك ، فهاهو الفشل والمصير الفاجع يكون من نصيب الاخوات الست الكبار ، وتثور بنا اللحظة الحكائية حين يأتي الدور مع الصغيرة ، وهي السابعة والاخيرة ، التيتسعى غير مسعى اخواتها ، فتكتشف انهن جميعهن كن قد فقدن حياتهن في سراديب الكاهنة التي تحتجز الأب ، وبمكر الصغيرة وخبرة الخطأ والصواب ، تتمكن هذه الصغرى من تحرير الأب والانتقام لأخواتها .. من قاتلتهن .. وهناك من يشير(١) الى ان القصة القصيرة .. قد ولدت

---

١) سوزان لوهافر - الاعتراف بالقصة القصيرة - دار الشئون الثقافية

بفعل رواد .. صقلوا أساليب الحكاية مثل بو ، وغوغول ، وتورجنيف ، ودو موباسان ... الخ

ومهما كان الأمر ، فاني اعترف بأني اعتبر نفسي بين المتذوقين بحساسية خاصة لهذا الطراز الراقي من الفن الأدبي ، الا اني اجدني غير جاهز للسباحة بين تلك الامواج الابداعية التي تأسر حواسك وتحتويك ، لكنها لا تسلمك حقيقتها ببساطة ، ذلك أن قراءة القصة القصيرة ، قد يكون في بعض الحالات أصعب من قراءة القصيدة الجديدة ، وهي عند بعض المبدعين سيمفونية متدفقة ... تطمس كل فواصلها .. مفاتيحها !!

ومن مبدعي القصة القصيرة بساحة الأدب اليمني ، يتمحور الوله الشخصي غالبا بفن عبدالفتاح عبدالولي ، وبفن سلوى يحيى عبدالرحمن الارياني ، وفيما يتعلق بخروج المجموعة الأولى لسلوى ، فان فرحي هو الذي يسبقني ، ويطلق فضول من كان احد الشهود لولادتي قاصتنا الصغيرة ، لذلك لااجدني محتاجا لتقديم سلوى او التعريف بها ، فالقارىء نفسه صار يعرفها كما يثق بتميزها ، ولهذا سوف اعفي نفسي من الالتزام بتحديد أي لحظة بذاتها لسلسلة مغامرتها الابداعية ، اذ ان الموهبة المتميزة طالما تجاوزت الوقوف عند سن المبدع او حددت لحظته الأولى .. لعمره الابداعي ..

البداية والتجربة ، هما معا في حيز الرؤية لمنتصف الثمانينات وحتى اليوم ، ومهما اختلفت الهموم ، او تنوع الايقاع في لحظاتها .. فانها تبقى تلك المخلصة لأناشيد الأمل ، سواء كانت لحظة شجن او بيوت بلا أبواب ، كما في المسبحة والضيفة .. وحتى في العدو العاشق ، حتى حين تصدر صوتها بخطاب الالغاء والنفي الحاد ، لما نعتبره من البديهيات التي اعتاد عليها وعينا .. فانما من اجل تذكيرنا ..بان الأمل ما زال هناك ، وعلينا ان نحاوره .. وقد اوقفني حس النفي الحاد هذا .. عند حافة صدامية بين الاعتياد الادراكي الذي الفناه وبين الاختراق الحدسي الذي يكشف لنا غباء الاعتياد ، كما نلمح عراك الفطرة العلائقية في محيط الانسان والاشياء ، مع منظومة المفاهيم البشرية المتوارية ، ولأن الأمل هو الفطرة ،

فانها ترصد المفاهيم الأنقى تلك والمدحورة ، وكأنما صوتها يذكرنا . . بأن العين حين تعتاد .. لا ترى ..!!

ان سلوى تضعنا أمام وجهي الحقيقة ، الوجه الذي اعتدناه ، والوجه الذي لا نراه ، أو نتعمد أن لا نراه ، وهي لا تكف عن الباس المنظور لنا بحساسية الحياة ونبضها المتوثب بحيوتها الجدلية الدائبة .

واقف ثانية لكي أذكر نفسي بأنه ليس لي أن أكون مرشدا يدل على خفايا ابنيتها ، ولا حتى على كل معالمها ، ذلك أن الناقد المتخصص هو الذي يقدم لنا مفاتيحها ، وربما كانت مفاتيح الناقد لا تكفي ، اذ أن لكل قارىء رؤيتة خاصة لأن فضاء القصة القصيرة يمثل مستويات دلالية مختلفة ومتعددة ، ولها قدرة على التقاط الصور التي لا نراها ، او لا نلتفت اليها ، مع أن هذا الذي يلتفت اليه اعتيادنا هي اشواك حياتنا وهي مخارز القسر الذي يضيق بنا ولا نضيق ....

وحتى نتعرف على حالنا .. فان الكاتبة تفجره شظايا داخل نفوسنا ، وتكشف لها هشاشة أحوالنا وهامشية وجودنا .. ففي بيوت بلا أبواب ، تنتصب «لا» النفي الحادة كوخز . وقطع حاسم هكذا (لا ، ليس لبيوت هذه البلدة أبواب .. ليس لها مداخل طبيعية للتعارف ، تحول اهلها الى خفافيش يدخلونها في الظلام من أي ثغرة ، تحولوا الى حيات تحتضر وهي تتسلل عبر الشقوق ، تحولوا الى وطاويط تهجم على البيوت من نوافذها .. ثم تحولت هذه البلدة الى أى شيء .. ذرة غبار رفعتها الرياح الى خارج النافذة ، فدخلت البهت. تحولوا الى اشياء وتشيأوا) .

وتتخارج اللغة بقصص سلوى ما بين حس الحدث وزمن التغلغل فيه لادراك خفاياه ، كما هو الحال والتقابل بين هاجس الحدس ورؤية القابلية الادراكية . والصورة تمتد أو تتماهي بمقدار شدة التوتر بين لحظتي الاعتياد والاختراق ، وبمدى أفق المبارزة بين نسائم الأمل ولفحات اليأس المحرقة ، ويكون لكل اشتباك منظوره وعدته ، كما أن لكل لحظة حمولتها الزمنية الخاصة ، فهي مشحونة . وفارغة ، ذلك أن الزمن يتقدم بنا . وهو لا يتقدم الا بنا ايضا ..!!

ان لسلوى وعيا مدهشا تسلطه بتلقائية شديدة على المحسوس المسطح لمعرفتنا ، وللتوغل المتواري لاعادة الكشف عما يختفي وراء اعتيادنا ، فتأتي اللغة مدركة لوظيفتها ، وتتدرج أو تتساوى بين كل مراتبها ، من جملة الى أخرى .. وحتى من سطر الى آخر .

انه تدرج النزاع والمجادلة بين الراهن والتماع لألق الآتي ، ثم بين عبودية اليأس وحرية الأمل ، وامتزاج الموضوعي بالذاتي وأمس الحاضر بالغد الذي يولد على شاكلته ..!!

ان الخوض في مستبطنات الذاتي ...، لأي مبدع كان ، يلزم الكاتب بالحرص والتعامل الحذر بعيدا عن اغراء وهم الافشاء المبثوث بثنايا اللغة ...، وإنما من حدود المسافة ذاتها ، وما يرتسم حسا لانطباعاتنا .. وما به تتغلغل ادراكاتنا بمساحة المراوحة والمراوغة للصياغة الفنية ، التي تجيز رسم فاصلة ما بين الذاتي والموضوعي ، ومن هذه الفواصل كلها يمكننا ان نلمح تحويم الشجن الذاتي قريبا وبعيدا عن بؤرة الظنية ، الا أنها بالتأكيد اصوات التراتيل الانشادية للآمال الكبيرة ، ذلك أن الذاتي والموضوعي يتقنعان ويتبادلان الأدوار على مسرحي الواقع والذات . وانهما يتداخلان الى درجة الالتباس ، وتتوتر حاسة الرصد ومشقته الى ذلك الحد الذي يخبرنا به عالم الفيزياء الحديثة ، عن مشقة الرصد في مجال - الكونتا الموجية - في مختبرات الفصل بين النترونات والاكترونات .. وحيث يتعذر على المختص رصد المسافة او الموقع .. ورصد الحركة .. بذات الوقت ..

وهنا يضيع الذاتي وسط تلك الحركة الدائرية لتموجات الصوت واللغة ، وللإلغاء للفواصل ، احيانا ، حيث يجب ان تكون . ،بشيء من هذه المقارنة الحدسية ، تبدو لنا حالة الشجن الخاص مشبعة بالشجن الانساني اللاذع لوعي واحدة من فتيات العصر ، ولدت خارج عصر وطنها الذي طال تخلفه ، اذ بقي هناك بعيدا أو مكبلا بمخلفات ماضيه وبمعوقات حاضره ، وظل عاجزا .. حتى عن اللحاق الى هامش الحياة الجديدة .

وكم يراودني النفي .. انا ايضا ، حتى لا أجزم بشيء خارج دائرة الرؤية الممكنة لما نحتسبه قريبا من المبدع وسره ، غير انني ، وبالاتكاء على متابعتي الشخصية لانتاج مبدعتنا الموهوبة ، ومنه ما لم يكن قد نشر ، أقول من هنا استطيع أن أؤكد .. بأن هناك تخارجا بينا - في بعض الحالات - بين شجن الذات ، وذلك الذي يعنينا ايضا .. كأحوال انسانية .

ففي قصتها (العدو العاشق) نحس ونلمس ذلك الشجن الخاص الذي يتعلق بسعادتنا الشخصية ، فهي تضعنا بداية ازاء حالة من التمويه الجميل ، وتشركنا مباشرة بالانشغال المتوتر لمصير الزهرة ، والتي جانبها الحظ ، فنبتت في غير مكانها الطبيعي ، الذي نعهده لنبات الزهر ، وتلك الزهرة دون سواها ، قد طلعت من بين كوم من الاسلاك ، والأشواك ، وغدا خلاصها من مكانها الموحش .. مشدودا بين صوتين متنافرين ومتباينين ، صوت لليأس الذي يحسب المغامرة من اجل خلاص الزهرة .. غير مجد ، وقد يكون تضحية مجانية ، وكأن الصوت الآخر هو صوت ما نتعلق به ونبحث عنه .. وننتظره ، قد كان يلح على تخليص الزهرة من مأزقها ، ولكن بقطفها طرية من عودها ومن اسلاكها وشوكها .. ولم يكن صوت الخلاص عابئا بسخرية الصوت الآخر .. الذي لا يكف عن التهكم والاستخفاف بامكانية الخلاص لتلك الزهرة . وتتصاعد المواجهة بين صوت الاستسلام ، وصوت العناد المقاوم ، بين دعاوى اليأس

ذاك البريق الخافت بأفق الأمل - ثم بين ارادة التملك والاستئثار بالزهرة ، وبين دعوى الخلاص .. ودعوي الحرية .

انها واحدة من قصص سلوى ، التي تتوفر على أهم عناصر الفضاء الدرامي ، وبلغة تنساب ثم تتراجع ، وتنعدم كي ترتسم شعورا بالاختناق لشدة قوتها الاستحواذية على أنفاس القارىء ، وتدور هكذا ...، بين شد وبعض ارتخاء ، وتتوزع المشاعر من التخلي والانحياز الى الصوت الذي نبحث عنه وننتظره . ويحتلنا التوتر بغلواء صوت اليأس ، وبعناد صوت الخلاص

وتنقسم نفسك بين مشاعرك ، فالمجادلة تتوه مشاعرنا التي ارتقبت الخلاص بينما دعوى الاستحالة تتغلغل بريبة الى قناعتنا ، وهكذا تنجدل مشاعرنا فوق اسلاك الزهرة وشوكها .

ان العدو العاشق هو نفسه .. ما هو الا العابر الذي توثقه الزهرة الى اسلاكها واشعاعها بألف ساحر ، لا يكف عن الجريان عنادا واصرارا بوثاقها الذي يزيد ن ربطهما معا الى مأزق الزهرة .. ومأزق الحل .. تقول في المقطع الافتتاحي .. للقصة :-

(أريد أن أضحك كثيرا .. كما لم أضحك ابدا . ولا ستضحكني الأيام الآتية كما تضحكني الآن) .

فلماذا هذه الرغبة الجامحة ، وأي نوع من الضحك هذا ...، حتى يوحي بالتشفي ، ويصير

ارادة قصدية متعمدة ..؟! .

لنسمع ، او لنتابع ، ففي المقطع الثاني ستكشف لنا بطلة القصة عن سر ضحكها ، انها تقول: (.. فقد رأيت بعيني من يحاول ان يقطف زهرة من بين كومة اشواك . ألا يرى أنها محاطة بالأسلحة ، وانها محاصرة بما يشبه الاسلاك ربما لترد عنها الأذى ، لكنها بالمقابل اسيرة حراسها ، وهذا الذي يريد تحريرها ما هو الا عدو ، ولا بد من مواجهته بالأيدي والأشواك ، بالمدافع ...)

لن أطيل ، الا ان لي بعض الملاحظات التي تحيرت قراءتي عندها ، فأنا لا أعرف سببا لقطع القاصة الموهوبة لتدفق الجملة .. ولوي .. او لي عنقها ، قبل ان تستوفي مداها ، ثم نجد الكاتبة وقد تذكرت وعادت لترمي ببقية المفاصل خارج حيزها ، وان تدارك القاصة لأحوال بعض مخلوقاتها يجعل غير المدربين على القراءة .. يظن ما جاء بعد الجملة المغلقة ، جملة جديدة .. تحيلها انقطاع العلاقة الى صورة باهتة كأشلاء راحلة اختفت قافلتها .. وأقول اني لا اعرف سببا يبرر ذلك الوقف المفاجيء ، ثم وصل فانقطع خارج مكانه ، فالكاتبة دارسة للأدب الانجليزي ، وتعرف الخاصية الاشارية واهميتها لسلامة الاسلوب وفهمه . غير ان هذه الملاحظة لا تؤثر على روعة العمل وعمقه . وقد لمست بقصة (العدو العاشق) مفاصل كثيرة ترتسم مشروعا لرواية ، وشخوصها التي يتعامل الروائي معها .. كامنة بمحيط الزهرة وبواحة اشواكها ، ثم بجانبها ، وبتلك الغزارة الوصفية للجبل - الجبل ، وللجبل كمعادل للبطلة ، ولذلك الصاعد الى الجبل الذي أرق الأحراش وينتظر المعجزة .

وحتى قصتها العميقة التي تتصارع فيها الفكرة مع الواقع ، أعني قصة (أنشد الخلاص) هذه القصة ايضا ، تتزاحم فيها كل مكونات العمل الروائي ، وتتميز بلغة مطبوعة على تقديم الفكرة مناهضة للواقع ، فالاطار الخيالي يرتسم لنا متحفا للآثار ، او هو عالم يخص كل الأسرى الى ارث معوق ، حيث تنكفيء التلقائية والارادة وتغيب الحرية بفعل التوافق القسري مع الرتابة للسائد المسيطر والذي يدربنا على أصول التبجيل لطقوسه ولتقاليده وعاداته ويكون الموقف منه خاضعا .. أما لمفهوم الولاء .. وإما لمفهوم التمرد ثم الانحراف .

الاطار فضاء المتحف ، او بهو قصر الملكة والملك ، او منزل الأسرة ، سواء الامر هنا او هنا

، فالجوهر واحد ، والولاء والغباوة ليس الا لذلك المورث وقد غدا قيودا كما غدا طقوسا ، فالكل يخضع لمشيئته وسطوته .. وحين تستقر الصورة بالاطار الأقرب الذي يغذي مداركنا ، ويصير منبعا نغترف منه لطريقنا ، تظهر العائلة كأب وأم وأولاد .

ونعرف ان الكل مؤمنين بطقوس منزلهم او عالمهم الا الأخ الصغير .. فهو المنحرف ، لذلك اتفق الكل على حالته الجنونية ، وافردت له زنزانة بعيدة عن وهج القصر وابهته ، وعن زينة الملكة ومحفل الملوك .. ولأن بذرة الجنون قد انغرست بين جدران المعبد ، فان الكل فيه صار قابلا للانقسام على نفسه وعلى اهله ..!!

هذه القصة تؤكد لنا مقدرة سلوى على التناول الابداعي المتنوع والمرتبط باشكاليات الحياة والمجتمع . انها هنا تكشف عن زيف البريق الذي يصدع نفوسنا واعيننا .. فهي تعري حيثيات ميتة لأغلب امورنا ، حيثيات قد شبعت موتا .. ولا يليق بالحياة المتجددة ان تبقى اسيرة لمحنطات متحفية .

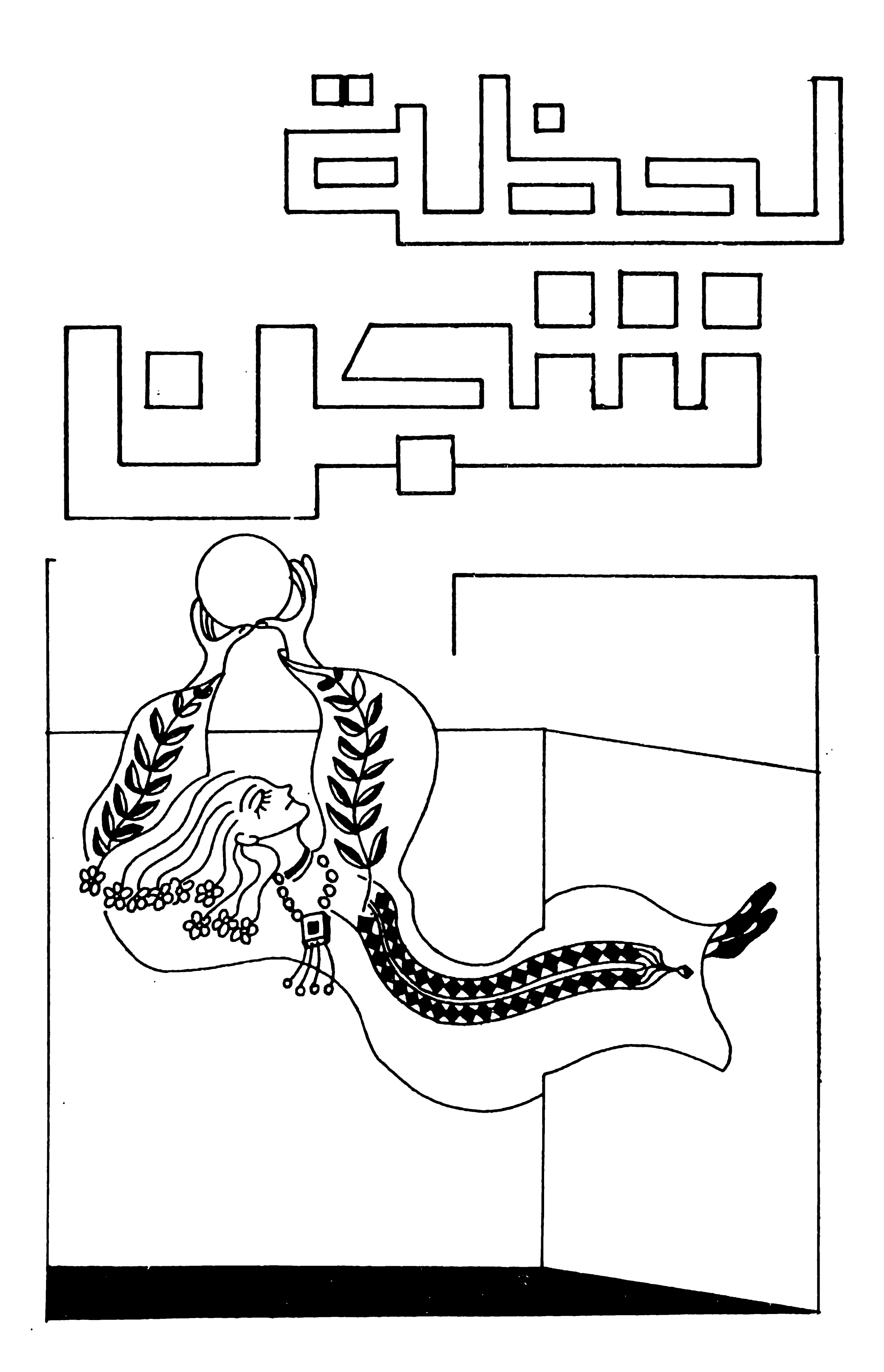
ان قلم هذه المبدعة ، يعيد رسم الحياة خريطة واحدة ، مترابطة ومتشابكة ، متعانقة ومشتبكة ، الا أن لكل اقليم تضاريسه ، مناخه ونباته ، وضحكه .. وبكاؤه .. واني هنا ، لا أدعي اني اعدت قراءة المجموعة كلها ، لأن ما اكتبه هو تحية خاصة لهذه المبدعة أما الجهد الآخر .. فهو جهد الناقد المختص ، والذي سيجد براهين استحقاق قاصتنا المبدعة لهذا الاحتفاء البسيط ، ولما هو أكثرمنه .

وبعد ، فان ما يسعدني حقا ، هو التواصل بين المبدعة وابداعها ، والاستمرار لحضورها كما عرفه القارىء .. وهو اكثر رسوخا وزهوا ، فذلك حق الحياة اولا ثم حقنا عليها وخاصة اولئك الذين يبحثون مثلها .. وينتظرون آمالهم بالنشيد .. وبالأغنية .

لقد صار من حق الانسان ان يرفض العيش دون أمل ، مما الانسان بدونه الا كاؤلئك الذين يقبعون في متاحف الأيام ، ويحافظون على طقوس اليأس والاستسلام .. كما ان صوت قاصتنا - باعتراف كل من تعرف مع ابداعها - أبرح صداء النفوس الواهمة ، وينشد دائما للآمال الكبيرة ، لذلك صار لنا ان نسأل عن صوتها اذا تأخر وصوله الينا . وصار لنا ان نعاتب كسلها لو كان للكسل سبيل الى موهبتها .. ننتظرها عطاءا جديدا وموهبة اكتمل

تفتحها ، وصوتا جميلا مع كل الأصوات الابداعية التي تشق بالكلمة طريق الأمل الى اطفالنا وحياتنا .

والآن .. لعله من حقي أن اعترف .. بأني قد أكون عجزت عن الايفاء بحق قلم ومبدعة ، الا أن عزائي الشخصي اني كنت واحدا من بين اوائل مستمعي صوتها ، وكان قد ادهشني وما زال .. وانا ما زلت انتظر الأروع .. انتظر الآتي .


لحظة
شجن

لحظة شجن .. وحده ... سنوات ، اعيش بها ومعها وفيها .. أرقد مع الفراغ واتجادل مع الضجر واعيادي اليتيمة احتفل بها مع الحيطان المتهالكة والأثاث المتأكل .. نشرب شلالات من الفرح المريض ونتنفس الأمل المسلول ونخرجه دخان حرائق . في اعيادنا يغني صوت ممطوط مسحوب من بقايا صدى موتانا .

في الشوارع اهيم .... لا اعرف الوجوه ، واجهل الاسماء واتجاه الطرق . وتطل من عيني عينان ساقتهما اكوام الذكريات وصمود الصبر .. أدق كل الديار ، الأبواب وكل القلوب .. اقترب .. وخيالي ظل داكن على حلقة اطفال تلعب ، تراهم يفهمونني ان انا نصحتهم الا ينهوا لحظات لعبهم سريعاً ؟ وان يتمسكوا باسنانهم الصغيرة واظافرهم بتلابيب طفولتهم ، باهرام المعلبات الفارغة ، بكل اللعب اقتربت اريد ان اسألهم عن طفلة غابت يوماً عنهم وعند عودتها لم يعرفوها ؟! كان الصغار قدكبروا وتغير الأطفال .

وقلت لهم «مساء الخير» فاذا بحلقة الأطفال تنفض ويفر كل منهم الى جهة ولا تطل من خلف الزوايا الاعينان .. ما لها نظراتهم مذعورة ؟ لما حتى الزوايا مذعورة ؟

... واخيرا أصل ... بدون سؤال عن عنوان ، ولكن بحاسة ما ادركت اني حيث اقصد .. الباب الخشبي امامي بزواياه المتربة ، موصد بقفل مارد عملاق شابت بعض اجزائه ، ويصر الباب الذي نام دهراً وتتمطى مفاصله ، ادخل .. اتلفت .. حتماً في انفي رائحة عطر آدمي وغبار الزمن ، كل شيء كما هو ، ابدا كما كان .. الغبار لا زال يكسو المعاطف المعلقة والكتاب على الصفحة ذاتها مفتوح ، وسطورة اصبحت كالشراع البالي المثقوب . اكواب مبعثرة لم تلمسها يد منذ يوم كانت فيه نظيفة يتصاعد منها بخار القهوة اليمنية . والأخطاء؟! يا ويحي لا زالت ولم ينفيها احد .

.... هنا في هذا الركن كان ميلادي ، «مساء الخير ركني الحبيب» ، لا زلت اسمع هنا فيك صدى الاقتراحات لاسمي ، صدى هائجا لصرخه مولودة اتت .. ولا زلت يا مهدي بالبخورتفوح بأطرافك الوردية تلوح ، تدنو وتتباعد كأرجوحة نزل عنها الطفل وتخلى عنها دافعها .

أرى ههنا نقاط حليب يبست وتعفنت على الوسادة التي غدت الأن دارا للفئران .. في احشاء وسادتي للفئران علم وحدود . تطل عيونها من ثقوب وسادتي انا وبعدها تسألني أنا

من أكون ! وتقول ان كل شيء هنا اصبح ملكها ، حتى الشمعة على الرف انما هي بعض تراثها!!

هكذا اذا ؟ كبرتم في مكاني ولعب صغاركم .. اعطيت ظهري للفئران . نظرت الى ركني ، لكنه لم يرد علي بعد .. لما هو صامت صمت من يقصدبصمته عقابا ؟ ركني ، الا تذكرني ؟ كم خطفت عناقيد العنب وكم اختفيت في احضانك وأكلناها سوية حبة لك وحبة لي . كم اهديتك وحدك مليء كفي اسراراً طفولية . كم غفوت بعد سماع اسطورة ماوكم حرستني . وانت كم فرغت قلبك من احزانه وشحنته بافراحي ، كم سكبت افراحك كالماء الرخيص وسهرت لأحزاني ، حقا كم كنت عظيم ! فلما انت لا تجيب ؟ لماذا لا تصافح يدي التي امتدت في ترقب ، واقبض اصابعي وابسطهما ، اخفي يدي التي امتدت في ترقب ، واقبض اصابعي وابسطهما ، اخفي يدي المخذولة خلف ظهري ، ومسمعي الذي يحن الى سماع اشياء من كلمات الترحيب اين الاستقبال ؟ والزينة ، اين سلال الفل ؟! اولست كالجندي العائد ؟ ، اولست انا كالفارس المغوار الذي عاد منتصراً ، بل انا اقوى ! أطمع في استقبال حار او بارد

بل لا اريد سوى العناق الذي حسبت له الثواني ، لحظة تخفي العيون الوانها خلف الجفون في غمره لقاء مستحيل تحقق ، أقول «مساء الخير» فلماذا لا اسمع ردا ؟ وادير ظهري ولكن حتى امامي ارى ركني . اواه يا مسكين تبدو كأم انكرت ذاتها من أجل صغارها فلما كبر الصغار هجروها بلا وداع ، فاذهلتها الدنيا الجاحدة ففتحت الابواب والنوافذ ، فتحت حتى ازرار ثوبها عل الموت وعساه يأخذها .. ولكن انا ..... انا طفلة في احشائك نبتت وفي شرايينك مشيت مشي سرايا الجند فـ ..... انا ؟ من انا ؟ لست ادري بعد يا ركني ، فلا تقاطعني بالأسئلة . كنت اقول طفلة في احشائك نبتت وفي شرايينك مشت مشي السرايا فاذا بهم يقصوا منها شفتيها قبل ان تبوح لك علناً جهراً بمزيد من اسرار الطفولة وتحرض الاطفال على الثرثرة و ..... ماذا ؟ انا ؟ من انا ؟ ركني ، حبيبي اسمعني فربما نعرف في النهاية . كنت اقول قصوا منها شفتيها وهي من كان في نيتها ان تلهو هنا ، ان ترفع اطراف الثوب وكرانيشه وتجري حافية في ساقيه ماؤها عذب شفاف ، كان في نيتها ان ترفض في العيد القادم ان تحني كفيها الا اذا حنوا كفيك ايضاً ، كان في نيتها ان تؤلف بتعبيرات طفولية وبحروف الابجدية اشعار لحبك يا ركني الحبيب و ... و ... ركني العتيق ، ليتك تبعد نظراتك المتسائلة عني ، وان كنت ترتدي الاسئلة قفازاً ليتك تخلعه ، فأني افهم نظراتك وافهم الاسئلة

المتفشية منها ، انها تقول عني من هي ؟ وتقول لي من انت ؟

لكن ركني ، يا طفل الطفولة ، كيف ؟! كيف صدقت صباغ الدجل او صباغ الغربة الراقية ايا غربتي .... يا ارذل مراتب الرقي ليتك تذوبي عني لابدو كما كنت . ركني ، كيف انخدعت بعجوز فتاة ترتدي الغروب ، ثوبا رمادياً والبدر خاتماً ، نظراتها قطرات مطر وعلى الجبين خطوط مدروسة ورغمها كم زلت القدم وحول عنقها فراء لذئب مسلوخ وهو رضيع ، هكذا افضل ، هكذا افظع ! ويداها في هبوط مستمر تبحث عن قاع الجيوب عن قاع الخفايا . هل صدقت كل هذا ؟؟ فاذا اسمح لي ان اتعرى عن كل هذا ولتعرف ، ان قطرات مطر العيون ما هي ... الا ... الا دموع سهرت على قناديل لا تعترف ، لا ولا تقبل الا بالأشواق اليائسة وقوداً لها وزيتا . واليدان يا ركني تبحثان في السجون عن اوسخ النعال الموجودة ، لأذهب معها راكبة اغبى الحمير والقي بها في وجه كل من تغرب .. واليدان يا ركني قد سجنتا لأنهما قد اقامتا مظاهرة مطالبتين بالشمس رغم الرمد بحفنة ماء القيها في وجه اعمى القلب والبصر فيشعر ويبصر . ركني هل تصدق انه تم شنق الابهام ومن الحزن نسي معصوبي العيون ان يبكوا . ركني .. يجب ان تفهمني ، فكم نتعاطف مع خرس لا يتكلمون ولكن من حركات ايديهم وتقلصات وجوههم ندرك فرحهم او حزنهم . ولكن لما انت لا تفهمني ؟

لحظة ميلاد وذكرى مبللة بالندى ، فيك يا ركن من اركاني حملوا شمعة ميلاد طفلة يومها كان لون عينيها بني . فاذا هي ترحل تاركة الركن والشمعة وتلكم إلطفلة وداعه عندك ومن الغربة الراقية اتخذت لونا لعينيها ، وركضت في الشتاء البارد ، شتاء مدمن جوع لا يشبع من افتراس الضعفاء . افتراس كل من كان في وطنه فعل ماضي للقوة . الشتاء مثله مثل كلابه المسكينة لا تعوي على من يحمل سوطاً في عينيه لأنها لا تنتظر منه حناناً وتعوي على من هو مثلها اذا ما مر وتجاهلها ، مثلها جريح ، مهشم الركب ومنسوف المشاعر .

تختلط انفاسي بانفاس الضباب وبانفاس الورق المتساقط ، الحابس لحفيف تساقطه ، الكاتم حتى لأنات تكسره تحت الأحذية . في الشتاء نسمع نحن ابناء الغربة ، نسمع نحن بنو غربة صوت ناي حنون ، يثير فينا رغبة شرسة في دق الارض بقوة باقدامنا حتى نحدث دوائر في طبقات الارض . لكن صوت الناي يتقلص فجأة ، ينتهي ، يخرس ! ويحل محله صوت اضراس تطحن ووعيد وتهديد ومواء ملتاع ، وجلد انسلخ من لسعات صوت من برق ،

فنصمت جميعاً ... اواه ، انها الغربة اجتاحت الابواب - تهمس الجدة لأحفادها - انها وحش كبير يا صغاري اغمضوا اعينكم وتكون الجده اول من يغمض عينيه .. مباشرة ستة عيون تختبىء تحت الفراش ، تحت الاف الستائر والأغطية الكل في الدور ، والشوارع خالية ، الكل في الدور والدور مسدله الستائر ومظلمه .

حتى القطط امتدت في الازقة متظاهرة بالموت والسيارات امام الدور تكاد تنزلق الى داخلها ، وحدي ركضت .. وخطوات جبارة خلفي تهز الأرض ، خطوات الغربة ! اسمعها قرع طبول في صدري ، لن تصلني الغربة ومهما لاحقتني محال ان تصل الى ركني قبلي . وهلا وصلت ركني ولكن ايا ركني مالك لا تجيب ؟ او تكون الغربة قد وصلت قبلي وغيرتك بعد ان غيرتني ؟ ركني ... يا لذة الشرب من اليد ، أجبني ، اجب وقل لي اين التضحية ؟ فانا لا ارى الا المهاجرين طوابير ..لماذا ترحلون ؟؟ لماذا اضعتم الحقيقة ؟ فلا تجيب سوى انحناءة جباه شابة وتطول ، تطول الطوابير تشرب بألم من بركة الكفر الوطني . ومضيت عنهم اعزي الأرض،

افتش بين تشققاتها عن عينيها وفي شق ضئيل يكاد يلتئم عنهم لمحت عينيها ، كالمرأة مبللة بالماء والماء دموعها والارض من ملوحة دموعها تشققت . دنوت من الارض و «مساء الخير» على لساني . لم تجب . لعلي كنت يوما في الطوابير ، ولكني رجعت ، وايضا لم تجب ونهضت لأتركها بهدوء تكمل التئام شقوقها .

افتش بعصبية عن صندوق زجاجي سقط مني في الغربة عله لم يتهشم عساه لم يخدش ، فيموت مني الرجال والنساء والشباب والصبايا والأطفال الذين وضعتهم فيه . كل صباح اتفرج عليهم . هم من وطني لكني كنت مغتربة فغربتهم معي وعدت فنسيتهم هناك يمارسون في الصندوق الزجاجي غربتهم الراقية ... ركني ... يا لذة النوم بلاهم او ذنب ، اتعرف أني قطعت اليك الحدود ؟ ذات الحدود التي قطعتها منك الى الغربة . ولكني الأن اريد أن استرد ما اخذوه مني وانا راحله . فتشت بين كومة اخشاب وعظام آدمية عن اشيائي ، عن حمولات عواطفي التي جردوني منها ، عن كل ما انتزعته اياديهم المتطاولة . اريد عروستي الزنجية بظفيرتها الذهبية ، قد كنت اخذتها معي لغرابة شكلها ، لاستمد من غرابتها صبراً على غربتي ، اريد اسمي وسني ومهنتي وجنسيتي ، اريد كل الاشواق الكافرة بالأمل فهي اشواقي وهي تخصني . اريد لون عيني ورقم حذائي ولكني ...... لم اجد شيئا . آه حقاً ، لقد عدت

بعد اجيال فكيف اجد اي شيء ؟ وكيف اطالب بما اخذوه ؟ وعيون لا تعرفني تطالعني ولا اعرفها . وانت يا ركني لقد عدت افلا تذكرني ؟ اتعاقبني ؟ وعلى رحيلي تحاكمني ؟

انها انا ... الطفلة التي استأصلوها منك ، حملوها منك وهناك كبرت . على النافذة العالية كبرت ، فتحتها على مصراعيها انتظر ان يأتي الآتي .... يأتي او لا يأتي ذلك حسب مزاجي ومزاج خيالي . انتظر العجوز في بزته الكحلية وقبعته المهترئة ، اهب اليه .... يعطيني طردي ، فيه ٣ تحيات وذرة شوق درجة صدقها تحت الصفر وموجز انباء عن من مات ومن توفي ومن انتقل الى رحمة الله !!

ومن ثم رسالة على ورق شجرة يابسة ما ان تناولتها بلهفة لاقراها حتى تفتتت في يدي .

وتبقى قطعة صغيرة مكتوب عليها ان كل شيء على «ما يرام» !!! حتماً من يرسل الطرد يحرص الا تزحف الى محتواه كلمة صادقة او حتى ذرة تراب شبعت الاحذية من التمسح بها .. اذاً كل شيء على «مايرام» !!! واضحك من النكتة السخيفة كسخافة القوالب التي نصب فيها احوالنا . وذهبت انادي جيراني ليضحكوا معي ، لا بل يجب ان يضحكوا معي ، امسك بساعي البريد العجوز ، لم لا تضحك ؟ الا تفهم ؟! لكنه ابتسم بظهره ... ومضى الجيران .

يا ركني كفى .... إمسح عن ذاكرتك التراب وحممها في ساقية ، ركني ، واضغط على زر الذاكرة ودع اللقطات تتوالى امامك . ستجدني فيها ، في كل اللقطات ... طفلة .... الم اقل لك وحيدة وللغربة انياب ومخالب ؟ الم أكرر خائفة والغربة غول اعتاد تزيين طبقة بالخائفين ؟ الم اصرخ ، صغيرة وللغربة عيون موضوعة في الليل وكل فوهات الرشاشات تقصدني ، وانا ...... انا لا اهرب ولا املك كوسيلة للدفاع الا أن ادعو الله في ليلة القدر ان يحولني الى ساقية تضيع في مياه فرعية ويطول ضياعها لتجد نفسها امام ركنها . وها أنا يا ركني هنا ، ساقية تتكلم .... أفلا تذكرني ؟ حسنا ، فلنسوي الأمر ، حتى انا غيرت رأيي ولن اذكرك ولا ساذكرني !!

.... ركعت على الارض ، طبعت خطوط جبيني ، بصمت اصبعي ، نقشت قبلة ولاء .... انه امضاء ركني .. راحلة انا ، تاركة انا لك امضاء . تأمله ، دقق فيه ، افحصه وعندما تتأكد من صدقه نادني وزف الي البشرى بدون مساحيق .

والتفت كي اخرج ، سمعت صوت الركن من خلفي يداري إبتسامة تنوي السماح وقال :

«لم تقولي حتى الأن من انت ؟» : ولم اجب . لكني صنعت من إبتسامته اجنحة ومن الأوراق التي رسمتها في طفولتي طائرة ومن غبار الركن رياحاً ومن ارضه مطارا .

... اقلعت طائرتي الف مرة وسقطت الف مرة وخلفت ورائها انتصارا واحتفالا بين طفلة وركن .

(١٩٨٥)

لازلت أذكر



هل يعشق الأعمى النور ؟ ام ترى المبصر يعشقه اكثر ؟ الأول يتمناه ويعشقه في إمتنان وتقدير واعٍ ، تقدير مدرك لحقيقة ما يعشقه اي العشقين اقوى ؟ عشق من يتمنى ام عشق من نال مناه ؟ وستظل حياتنا سلسلة اماني وما الأمنية الا جوهر وهدف هذه الحياة .

- لذا فانا لا انتقد كونك لا تدركين عذابك في هذا الظلام . لكن يذهلني خضوعك وإستسلامك وترددك حتى في المحاولة . عزيزتي ... أضيئي النور كي تعرفي حجم ما نفتقده . مقدار ما عشناه وحُسب علينا عمراً . أضيئي النور كي يعيد بيتنا المظلم مضاء . ما كل حرصك على هذا الظلام ؟ او لا تدركين معانيه ؟ أضيئي النور . ما عدت اطيق التحرك في الظلام ولا تلمس خطوي بالأصابع اشتقت مسابقة الريح . تعبت من الكبو واقوم لاكبو . اشتقت ان أضحك . اشتقت ان يملأ الضياء زوايا عيني وانتِ ... حبيبتى الا تشتاقين ؟

- اوه ... دائماً انت هكذا !! دائما تثرثر وتثقلني بهذا الهذر الابدي . دعنا من هذا كله ودعني احكي لك اني سمعت اليوم اغنية بديعة . كلماتها عميقة ومعانيها معبدة . لحنها رائع والصوت به حشرجة صوت ضحك مطولاً وعلى الرغم من ذلك فهي اغنية حزينة . كم اعجبتني الا تريد ان تسمعها ؟

- أضيئي النور . اتوسل اليك . وحدي لا استطيع . حتى ولو ثرت وقاتلت وحتى لو نزعت عني كل العواطف واقتلعت جذور ارتباطاتي من الأعماق وغسلت كياني من علاقاتي حتى لا اضعف امامها وضحيت وضحيت وضحيت ...فوحدي لن استطيع ان اغلب الظلام ولا هو يستطيع ، فاضيئي النور وعودي إليَّ يا جناحي المخدر ولنحلق فوق الربوع . أضيئي النور يصير بيتنا المظلم مضاء .

- وقرأت كتاباً عن النسبية . وضعته جانبا لاني كدت اجن اذا كان للحقيقة اكثر من وجه واذا كانت الحقيقة نسبية ، واذا كانت الحقيقة عندي هي الزيف عند سواي فاين الحقيقة الحقيقة اذن بين كل وجوهها ؟ هل يُعقل ان يكون غني من لا مال له ومن له ثروة فقيراً ؟ الكتاب يؤكد ان هذا جائز اذا قسنا الغنى والفقر بالمبادىء والايمان . فما النقود اذن ؟ وهل نصدق ان السعادة قد يشعر بها من نعده يحيا في مأساة ونمطره شفقة كلما ذكرناه بينما يحيا في تعاسة خفية من نرى باعيننا كل وسائل السعادة وسبلها تتمرغ تحت نعليه . وما السعادة

وما الحقيقة اذن ؟

– اضيئي النور . اضيئي النور يعيد بيتنا المظلم مضاء . هذه العتمة تميت بداخلي اشياء تُحس ولا توصف . واذا ما وُصفت فحتماً سيكون ذلك بتعابير الوجه والأيدي اما الكلمات فهي تطل برؤوسها من فجوة الكهف ويقهرها الضياء خارجة فتخاف وتتراجع وتعود الى الكهف الا تبالين اذا قلت لك ان هذا الظلام يميت بداخلي اشياء واشياء ... وانه في مرحلة ما سوف يميتني انا .

– بك اكثر من ذلك ! عرض الكتاب آراء كبار الفلاسفة وقرأت ان الفضيلة وسط بين رذيلتين . فالجبن رذيلة والتهور رذيلة بينما الفضيلة وسط بينهما . فما الوسط ؟

– اضيئي النور اتوسل اليك إفعلي ، إفعلي ... إفعلي .

– ان الوسط هو الشجاعة ! اليس هذا بديع ؟ الواقع اني اندمجت في الكتاب حتى غبت .

– أضيئي النور يا لهول غفلتك . الا يخنقك هذا العناق ؟ عناق الظلام ... الا يُعد لك سواداً ووحشة ؟

– وعندما استيقظت وجدتني مدفونة في ظلام بيتنا . وتألمت ولكن كيف نضيء النور بل ولماذا نضيؤه و نقيضه يتدفق من احداقنا وينهمر من مسامنا . لكني طبعاً تألمت ، اجل تألمت جداً .

– اضيئي النور . ولكن اذا كنت لن تفعلي فلا تتفلسفي لتبرير إمتناعك . فالفلسفة قد تعالج حرج من تعثر ، قد ترضي غروره ، بل قد تجعل من عثرته غاية ! لكن يجب ان تفهمي ان « عثرة » في الحياة ليست آخرنا ومن تعثر سينهض ولكن الفلسفة لا تضيء النور ولن تبدد عتمة الظلام . اضيئي النور فليس لهذا الظلام خلفية ماضيه طبعاً ، وبالتأكيد هو ليس نتيجة تراكمات تاريخية لكن ! لكن برغم ثقتك بأني اكذب وبرغم سخريتي وضحكي ومراري ... برغم اعترافي باني اكذب الا اني اؤمن ان كل وقت مسئول عن نصيبه من الضياء . فلا تجعلي تلمس الطريق باصابعك كل ميراثك من اجدادك فما ذنبك انت في كونهم كانوا عمياناً ؟؟ انك في هذا الظلام تهدرين وقتك في سموات عالية ... بيضاء وناصعة .

– ما دمت تعترف انها سموات عالية وتقول بأنها بيضاء وتصفها بأنها ناصعة ، فلماذا اذن تقول اني اهدر فيها وقتي . لماذا تتهمني باهدار وقتي ... وقتي ليس مهدوراً لم

تتركيني اكمل قولي . قلت انك تهدرين وقتك في سموات عالية ، بيضاء وناصعة رائع ان تفعلي ، آه اجل رائع ان تفعلي ، رائع ان تسبحي في الافق ، رائع ان تحلقي ، لكنك تتجاهلين بكل هذا ان السماء لن تعلو رأسك مباشرة مكفهرة وكلها كلها معكرة بالغيوم . وما الغيوم أنها قطع من رحم الظلام ، لم تحاولي ، متى حاولتي ان تتأمليها ؟ تشاهدين غيومها ، تدرسين تحركها ، تسمعين نظراتها ، تحاورينها ، تسأليها ، تفهمين ان صمتها ابلغ من كلامها . بل مادلائلك على انك تحسين مجرد احساس ان لهذه السماء الغائمة كالحبر وجوداً ؟

– انا اخاف !!! هذه السماء ان اغضبتها يخيفني مجرد تخيل عقابها ....

– لم المحك تفعلين حتى ما يفعله الأطفال السذج الأبرياء .

– الأطفال ؟ وما عساهم يفعلون ؟

– يحاولون نفخ الغيوم بعيداً ، يحاولون باصابعهم الصغيرة ازاحة الغيوم عن وجه سمائنا ، يمسكون بنبلة ويرسلون بها حصى صغيرة قد غطوها بمعجون من التراب وعصير الزهور معتقدين ان هكذا تُطبخ السموم . محاولات غير مجدية ، قد تكون مضحكة وقد تكون مبكية ، لكنها ليست مرفوضة لأنهم هكذايعبرون عن رفضهم لهذه الغيوم فكيف تعبرين انت؟

– قلت لك اني اخاف !! ثم لماذا تقاطعني ؟ تثقلني بما يؤرق روحي وما يهدد سلام نفسي ويفرغ طيف النوم فلا يعود ابداً الى احداقي . دعني احكي لك عن زيارتي اليوم . ذهبت لزيارة زميلة لي وهي على فراش الموت . مزق قلبي منظر الصبا وهو يحتضر . دفعني دفعاً الى التفكير في الانسان وهامشيته . إن هو إلا نفس ... إلا دقة قلب . فان تعطل الأول او توقف الثاني مات الأنسان برغم كل عبقريته .

– اضيئي النور ... أضيئي النور ... أضيئي النور ...

– ولكن اعنف ما هزني حتى كتمت فمي بيدي خشية ان تفيض دموعي من بين شفتي هو منظر شاب . قالوا انه جارها او قريبها ، لا اذكر بالضبط . المهم هو انه كان يبدو متماسكاً لكنه كان يكبح داخله جماح زوبعة . وعندما لمح ولمحنا كلنا اللون الازرق يزحف تحت عينيها واللون الأبيض يغتصب ورد شفتيها منذراً باقتراب مفارقتها للحياة وابيض وجهها بأسره هرع الشاب من بين المحيطين بها ودنى الى الارض بجانب فراشها . امسك بقبضته المتشنجة على خصلة من شعرها الملقى على ذراعها . وفوق زندها بكى بحرقة وإلتياع . هل تخمن ما قالته

هي في تلك اللحظة ؟

– هل قالت ذاهبة الى حيث الأنوار ... الى حيث النور مضاء باستمرار .

– بل ابتسمت مرتعشة وبدت تبذل مجهوداً خرافياً لترسمها ، وبدا الحياء في ملامح الوجه المحتضر وهمست له : هل كنت تتخيل ان تمسك شعري هكذا في غير احلامك ... ولفظت نفسها الاخير وفلت من يدها حبل الحياة . لكنا سمعنا جميعا الحرف الذي لم تنطقه «احلامك» ونشج الشاب وجروه من على فراشها كما يجر طفل من امام واجهة محل يعرض احلى واغلى لعبة تمنى ضمها الى صدره .

– اضيئي النور !! كرهت نفسي ، والله كرهتها . كرهت نفسي وانا انام كالاشجار واصحو كالاحجار ! لا اتحرك لأني اخاف إن فعلت ان اصطدم بما يحرمني نعمة الحياة . نعمة ان تبقى الشجرة بدون بتر والحجرة بدون شرخ نعمة الحياة مجردة عن اي معنى سوى معنى الوجود ولكن انا اليوم اتساءل ما حياة حجره وما وجود اشجار ؟ انا لن اجهر بالحقيقة الا انا افشيت اسراراً اجل اسرار ، من نوع غريب . تكمن سريتها في كون لا أحد يتفوه بها بصوت مسموع ولكنا جميعاً نعرفها ... وكلنا نعرف انا جميعاً نعرفها . فكري قليلاً تضحكين من السر ومن كل هذا السخف ! نحن ، نحن من حاولنا التملص مما اسميناه شرانق حديدية . ومن فشلنا في هذا التملص ادركنا اننا معلبات في الاساس . معلبات اهملت على رفوف ثلاجة واسعة وسع سنوات اعمارنا ، نشاهد من اعلى رفوفها الشمس بعيدة ولكنا لا نحس حتى دفأها ، طُبع علينا مشوار ، حُدد متى يبدأ ومتى ينتهي بل وفيم يُقضى ! وعرفنا من نهايات سوانا شكل جماجمنا بعد الموت . ورغم كل هذا التيسير ، رغم الأحداث وكم حللنا ، ورغم الاحلام وكم فسرنا ، رغم الأماني وكم انتظرنا فاننا ما زلنا نتمنى يا خالق الأرض والكائنات والسماء شمعة تذوب وتفنى لنحيا .... . دلنا يا الله من يكون الشمعة وهل غير التضحية معنىً اسمى؟

صحيح اننا احيانا ننسى انناعلب ، فنمسح جباهنا وكأننا بشر متعبين ولكن يذكرنا البلبل انه جليد ذاب وليس عرق . فالمعلبات لا تتعب ! نشتهي ان نصعد درج الحياة وفوق كل درجة نثور وبعدها نغير ونطور ونحسن ونهدم لنبني ونقتلع لنزرع ولو تعثرنا كثيراً ولو تأخرنا طويلاً

لكنا نشتهي ان نصعد درج الحياة . ومع ذلك فاننا وبكل استسلام نتدحرج فوق الدرج عالمين انها النهاية ... عالمين اننا سنُسحق ، ومع ذلك نتدحرج وفي النهاية نُسحق ، وننبت من جثثنا

شهداء وضحايا فوق صلب الطرق . نتمنى يا خالقنا ان نعرف لماذا النور يخاصمنا ؟ وبأي حق هو يرشي بنا الظلام ، فنتحمل نحن جلاد نقمته ونغتال ظله ويتمتع النور بالنور و الشمس واسراب الحمام . انما نحن معلبات !! معلبات ، لا فرق اذا كانت من حديد او وهبنا الظلام جسداً من ذهب . كلنا ، كلنا في الخاتمة علب ! اوصفي النور ... حاولي . ستفاجئين بالتأتأة لأنك يا مسكينة تجهلينه ولا تميزين وجهه من بين الأقنعة . من اجلي ، أضيئي النور ، اقتربي مني . تفلسفي ان شئت وثرثري ما دمت ترغبين ولكن عن إمكانية بعث المشاعر المدفونة ، لا لشيء ولكن لأنها مشاعرنا عن حقنا في استرداد موتانا ولو جثثاً ، وعن ضرورة استرجاع ذرات رمالنا ولو من تحت صحاري الإهمال وهياكل الآمال وانقاض الدنيا . وعودي يا حبيبتي انا صغيرة وخجولة وأغرقي قبل كل همسة رقيقة في فيض وردي من الحياء . ما كان احلاك يا نور في النور . عودي واقيمي في قلبي يا ملاكي . دعينا نتناقش ومن تواجه ومبارزة جحافل كلماتي وجنود كلماتك يتولد الضياء ويفيض في ارجاء السماء . عودي من المتاهات البعيدة التي دخلت فيها . اخرجي قبل ان تنسي ما اسمك ، ومن تحبين ولمن تدعين ومن اين الخروج . وعندما تخرجين عودي الي واصمتي لنذوب في نظرة تقول اجمل مما تقوله الشفاه ، كل الشعر ، هل تتخيلين حياة كهذه الحياة؟ حين اعرف من النور اين تقفين وتعرفين اين انا اقف . واذا ما اردت ان المس اللمعة فوق خصلات شعرك لم اخطىء الملمس ومعي اردت مسك يدي لنمضي لا تمسكين الخشب ! هذا النور ضرورة وبداية ومقدمة ومفتاح لمنجم من ذهب . بالله لم لا تضيئين النور ؟ الا تدركين ؟ احقاً لا تدركين ان كل مشاغلك ومسؤولياتك وإرتباطاتك وكل ما تنشغلين به ما هو الا هروب . أضيئي النور لتفهمي ان الموت مثل الميلاد لكل منهما لون من المشاعر . وما الموت الا حدث ليس له تالي . لا اكثر ولا اقل . أضيئي النور لأن النور من حقك . نادي النور بصوت من لهب . اضيئيَ النور لتفاجأي ان دنيانا دمية وبشرنا العظماء في يد سوانا ليسوا سوى لعب . اضيئي النور . كم مرة يجب ان اقول واعيد . هل اشرح اكثر ؟ هل حقاً تحتاجين للمزيد ؟

- ربما افهم . بل نعم انا افهم ، لكني اخاف . الم يزلزلك بطش الخوف ؟ الم تنحن لسلطانه ؟ اما كانت تربيتك وانت طفل كلها هروب من الخوف ، من مخالب الغول ، من خيالات الجن ، من نداءات الأموات ، من ملاحقة الاشباح ؟ وحملونا هذا الخوف اكواماً

واكواماً . وكبر الخوف داخلنا وفاض من حولنا وحفناً كباراً من الغول والاشباح حتى صار الخوف افظع المحن .

– اسمع ! حياتي اريد ان احياها وانا ابدو كغيري . مثلما هم يبدون سعداء كذلك انا اريد ان ابدو . لا يهمني اذا كان هذا المظهر لا يغلف ذات المضمون . بل لا مانع لدي ان يناقضه الى درجة مضحكة . لكن قل لي اذا كنا اضعنا من ايدينا الجوهر وفتناه فلماذا تطلب مني ان ازيل القشور . ونحيا عداه ؟!!

وصممت بقبض اصابع يدها المرتعشة من شدة الانفعال وقلت :

– اذن تدركين الظلام . تميزين لون بيتنا الداكن .

– اجل ، واتنفسه واصادفه وامر به واصافحه كل لحظة . لكن لا اتخيل مواجهته والصمود امام حدة نظرته القاصمة ، فكيف تطلب مني شج بطنه وإجهاضه ؟

– ولكنك يا حبيبتي المسكينة نسيتِ اذا خضعت لهذا الظلام فسوف يطمعه هذا في مزيد من الخضوع . سيجردك في عمرك القادم حتى من القشور . وهذا تنبؤي سيصب في اذنيك الشمع الذائب حتى لا تسمعين حتى ما تفرحين به الآن من اغان . هذا تنبؤ سيفقأ عينيك حتى لا تبصرين حتى هذه الكتب . هذا تنبؤ سيمنعك عن الزيارة ويصادر قدرتك على التأثر و الاحساس والإنفعال . وسيجعلك تشكرين له كرمه في كونه ترك لك من كل الحواس حاسة اللمس كي تتلمسين خطوك في هذا الظلام . هذا تنبؤي .

– فإذاً ؟! هل الفارق شاسع بين ان اواجهه واحتمالات خسارتي وفقداني لكل شيء كبيرة جداً وبين ان احيا ولو متلمسة خطوي . انا اختار افضل ما استطيع اختياره ، انا لا اختار المحال . حتما انت لا تختلف معي في كون البقاء اجدى من الفناء . والشيء البسيط من الاول خيراً من الثاني وارحم من الموت .

– اواه من الاعماق ... لا فائدة ترجى انها لا تسمع رغم كثرة وإلحاح الأصوات احنيت رأسي مثلما افعل كلما وصل النقاش الى نفس النقطة التي ابتدأ منها . ومضيت مبتعداً . لا فائدة تُرجى ولا امل ينتظر . كيف احارب وحدي ، كيف افوز وحدي ؟ سيظل حبي لها ينغص مساري وستظل ضرورة مشاركتها توهن سلاحي . و في ذات الوقت كيف ارى الدنيا في الظلام وكيف اشرب مياه المستنقعات . كيف ؟ وما العمل ؟ وقررت ان ارحل . ما معنى ان

ارحل ؟ لا ادري وما عاد يهمني سوى ان ابتعد . فانا على الأقل حر في نفسي في ما جرى لي ولها ، في هذا وذلك الاذى . مهما تذهلين يا حبيبتي الغالية فلن اضعف ، مهما وصفت رحيلي بأنه خيانة ، لا يهمني او ما عاد يهمني ، ذهولك لن يضعف اصراري ولا بريق الدمع في عينيك ولا رعشة الأهداب . لكني سأذكر ذهولك طوال الترحال . سأقول لك هنيئاً لك تمتعك بالقدرة على الانذهال . ساعتبر الذهول فوق وجهك ذهولاً مضحكاً واعدك اني ساضحك

لأن الحق لم ينتصر والخير لا يغلب دائماً . فاذا ما حدث هذا اعدك بنفس الذهول بل حتى انا سأذهل . حر انا في ان اثور ولو متأخراً ولو بعد استقرار الظلام بدهور ، ولو بعد تغلغل الجذور في الأعماق . اما سمعت يا ساكنة كياني تنهيدة التنهيدة ؟ لا تطلبي مني التريث او التعقل ولا حتى الوفاء لك . فانا راحل . وانا اثور على شرايين اورثتني هذا الظلام المقيت . ميراث كامن في اعماقي لذا سافجر هذه الأعماق ، على هذا الكهل الشرير الذي يتقوقع في داخلي يتوفى . سامسك هذا الكهل من ياقة قميصه ، ساصفعه ، ساركله ، ساشتمه ، ساهينه

سادفعه الى هاوية ، سادفنه وهو لاهث ونازف ومضيت مبتعداً ممعنا في الابتعاد . وسمعت خلف ظهري زغاريد او هي تحاول ان تكون كذلك . شعرت انها اشبه ما تكون بقطع نقدية تنهمر داخل اذن جدرانها من نحاس . تداخلت الزغاريد حتى بدت غوغاء وتخللها زفرات وانفاس وسددت اذني في ارتياع . وفي السماء تسابقت الوان فاقعة سرعان ما يتلاشى رذاذها ويعم الظلام . واطفال يتقافزون ولست ادري لماذا احسست ان قفز الاطفال انما هو توجع من جلاد يقف خلف ظهورهم ويلهبها بالسوط . وحتى هتافهم كان ممطوطاً وملتاعاً . هل انا اتوهم ؟! ماذا يقصدون بكل هذا ؟ ايقصدون انهم يحتفلون بزفاف ؟ سابقى حتى ارى العروسين لربما يثبت ذلك ان هذا المشهد انما هو احتفال بزفاف . تسارعت دقات قلبي وانا اقترب اكثر حتى شعرت ان دقات قلبي تحاول الحد من علوها خشيّة ان تعلو منزعج بها في تلك الغابة المروعة من الصرخات والعواء . وحركني تشاؤمي وقادني الى جموع الحاضرين اختلطت بينهم لاشهد خروج العروسين . وتلفت اتأمل وجوه الضيوف النساء تضع ايديها تحت ذقونها ، ليس حيرة ولا تدللاً وانما خلت ان الرؤوس المتأرجحة سوف تتدلى على صدورهن ما لم يسندنها بايديهن وعلى وجوههن اصباغ ومن شدة اضطراب ملامحهن لم اميز مكان الفم عن العين ، فكلاهما . فاقع الاحمرار . والرجال كانت شفاههم شديدة البأس . اعطش ؟ حاول

احدهم عندما لمحني اتأملهم ان يبتسم معتقداً انه بذلك يسلم غير ان الشق في شفته السفلى اتسع وسال منه خيط دماء . وبسرعة احنى وجهه وغطى دمه بكفه وخرج من بين الجموع وتبادل من حوله نظرات برزت فيها الهلع عليه ، وفي اخرى رأيت الحسرة والوداع . اما هو فقد اختفى إختفاء من يخشى ان يُقبض عليه وهو متلبس بما يكشف عدم صدقه ، عدم فرحه ، عدم إحساسه باي حماس لهذا الزفاف . وشعرت بالضيق خالياً من اي شعور آخر يخفف من ثقله على صدري . يا ربي ، ما هذا الزفاف الغريب ؟ اكاد اقول ان الحاضرين ضِربوا لإرغامهم على الحضور او عُذبوا لإجبارهم على حضور هذا الزفاف . كأنهم كانوا الليلة الماضية حمى وسهر وهذيان «حتى اصواتهم تعبة ومنهكة» كان الجميع يرمي الى الاعلى الفل والياسمين لكن بغُلٍ وغضب . وكانا يتساقطان كالثلج فوق الرؤوس وفوق رأس العروسين الذين ظهرا عند الباب ارتعشت في تلك اللحظة من شدة بروده الصقيع في نظرات الكل ورغم هذا ظلت الايدي بكل آلية ترمي بالياسمين والفل . في كل لحظة كنت اشعر ان معدتي تتماوج . هذا الزفاف غريب . انا لا اتوهم . ورفعت رأسي طارداً كل الخواطر . رأيت العروس تمشي كنصل من جليد لكن النصل انغرس في قلبي المتجمد مسنوناً وحاراً ، فما كان اشده الألم . ان العروس هي ... هي ... اقسم بالله باني كنت اشعر انها هي !

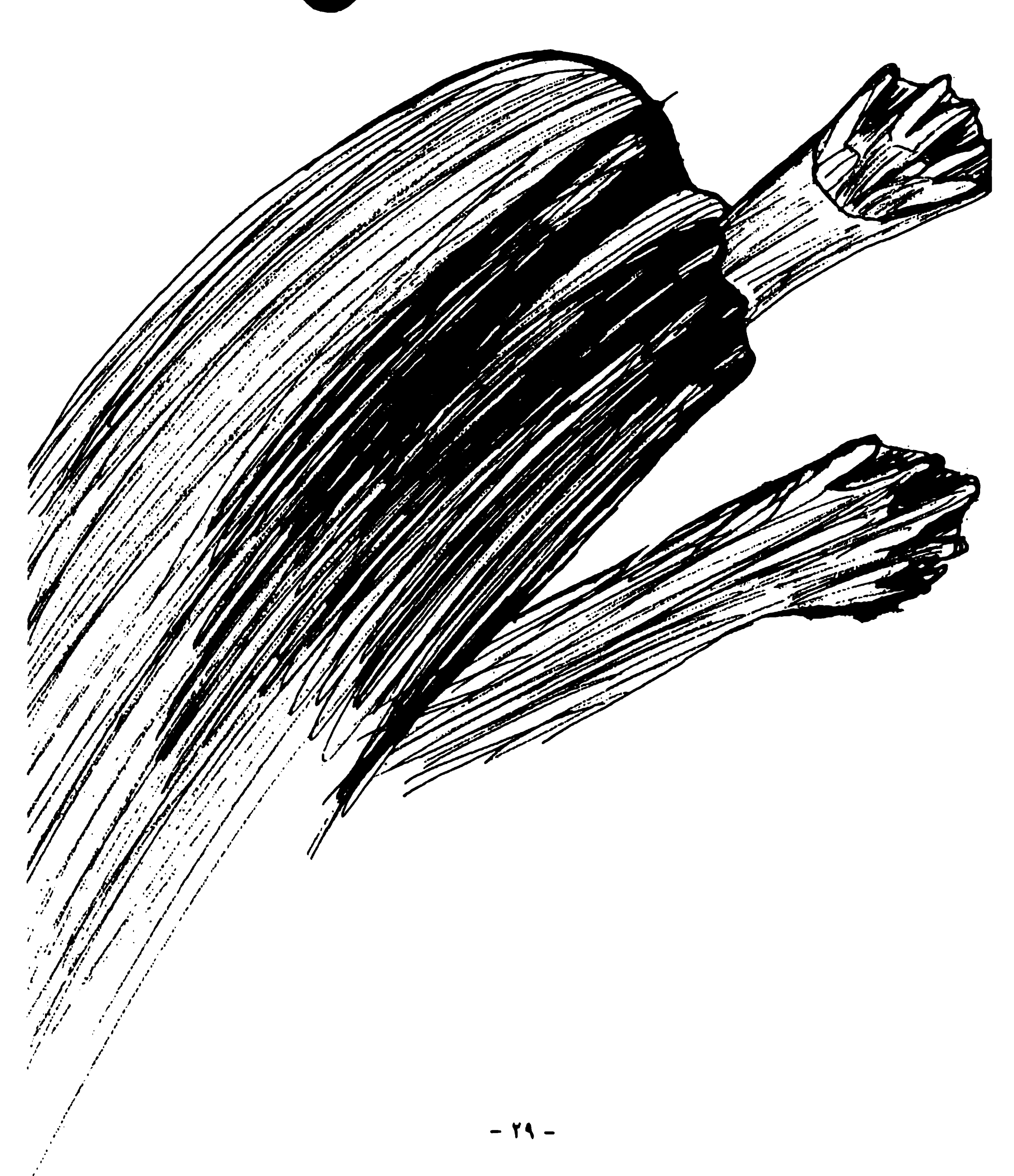
تتدلى الورود وخرزات اللؤلؤ على جانبي خديها . رموشها سوداء وفوق ثغرها الجميل إبتسامة أجمل بدت للجميع نابعة من القلب . قد قالت لي انها لا تهتم اذا كان المظهر السعيد لا يطابق المضمون بقدر اهتمامها بأن تبدو سعيدة . وهي فعلاً تبدو كذلك . عروس تتألق في فيض من الفرحة العارمه والسعادة الحقيقية . آه كم اشتهيت لو التقت عينانا لبرهة فقط لأسألها متى يا حبيبتي اجدت التمثيل ؟ وان كنت حقاً سعيدة فاصمدي وعيناك في عيني ، لا تخفضيها وسيكون ذلك دليل !

والتفت لأرى العريس ، اتكون حبيبتي انا عروساً لهذا العريس ؟

انه الظلام !!! ...

اسود الوجه والحله . يتحرك الى جانبها وكأنه «خيال مآته» كُسي بريش الغربان . احسسن ان الدماء تجلطت حيث هي في عروقي . واني اتقيأ ما اراه كتلا من دمائي . واني اترنح وافقد الوعي واتهاوى فوق الارض المغطاه بالفل والياسمين . واليوم ... اليوم لا زلت اذكر ذاك الزفاف برغم مرور السنين .

أنشد الخلاص



لنا متحف ، هو متحفنا وسقفنا وظلنا وملجأنا ونحن اقدم وأوفى اصحابه . هجرته هذه الدنيا الملعونة الجاحدة . لم تفهم الدنيا واهلها ان الخير في الأصل وان من حاول ان يركض دون ان يكون قد حبى حتما مصيره ان يكبو ويكبو ولأنه قد صار اكبر من التعلم او حتى الاعتراف بالخطأ فانه يقضي حياته في الكبوات ، فهل هذا صحيح ؟ هل نظل ملتصقين بهذا المتحف مهما اثقل خطواتنا بالأغلال لأنه كان البداية وكان ايامنا الخيرة ، أم نتفصل عنه حال نشعر بالوقود يفور في شراييننا حتى نلحق بركب الدنيا الدائمة التطور .

خاتمة كل الأسئلة ان لا تؤدى الى أجوبة وخاتمة كل الأفكار عدم التنفيذ لذا فخاتمة هذه الخواطر هي العودة الى الواقع كنت اقول لنا متحف ، اغلى ما فيه ملكنا وملكتنا وهما يقفان في كبرياء وتعالٍ . الدماء لا زالت في عروقهم حارة وجارية . عيونهم لا زالت ترسل الأوامر المطاعة . لا زالت حلة الملك نظيفة وازرارها لامعة رغم مرور السنوات ولا زال الصولجان الذهبي يبرق ، وفوق رأس ملكنا تاجه المرصع يتلألأ . لا زالت الملكة رمزا للجمال حين يفتن ويأسر من شدة كماله . لا زالت خصلات شعرها ملفوفة ما تراخت ولا تدلت فوق اكتافها العارية . لا زال ثوبها المخملي ناعما ، ذي ملمس مخيف ولا زال حذاؤها بفصه الفيروزي يرفع قامتها الفارعة . ونحن لا زلنا نحبهم ونعشقهم ونحيا بوقوفهم بيننا ونتنفس هواؤهم . لا زلنا نقدم لهم الوجبات الشهية التي نحرم أنفسنا منها ولا زلنا نرفعها من أمامهم دون ان تمس . لا زال العبدان بالريش الفاخر الملون يبعدان عن عرشهما ذبابا لا وجود له . لا زلنا نهرع اليهم عند الأزمات والمحن . ولا زالا هما الفرح ، النجاح ، الفخر ، ولذة ارتباطنا بالوطن . رغم جمودهما الذي عذبنا حيرة واستفسارا / رغم عدمتحركهما حركة واحدة منذ سنين . رغم تحديقنا في عيونهما فلم نلمح رمشا لهما يتحرك حركة او يرف . رغم تحولنا الى مهرجات ومهرجين تفتعل على وجوهها السخرية وتلعب بألسنتها طمعا في اضحاك الملك او الملكة دون جدوى . ابدا لا يغيران تعابير وجهيهما ولا وقفتهما . رغم هذا التجاهل الذي يوجعنا الا اننا لا زلنا نحتفل بتواريخ تولي ملكنا العرش وذكرى زواجه بالملكة وبأعياد ميلاد كل منهما . لا زلنا نناقش ما كانا في الماضي يقولانه ونحفظ عن ظهر قلب حكمهما ،فلسفاتهما وامثالهما

التي عاشت معنا في كل مواقف حياتنا ونروي لصغارنا بطولاتهما وسنظل نتخذ منهما قدوة ورمزا ومثلا أعلى .كيف لا ؟

كيف لا وهما ملكنا وملكتنا اللذان عشنا في عهدهما تحت شمس خلنا انها مشرقة في الصباح والليل في اعيننا اشرق الظلام وأخضر اليباس . تفجرت في الصحارى المياه وصح الناس وشعت من جباههم نعم الحياة ، من مظاهر جميلة وابتسامة صادقة وعقول متنورة ورزق كاف ومرض . ادام الله الرزق للجميع وأدام الله لنا الملك والملكة .

ولكن ...... ولكن كان في متحفنا شيء ينغص صفو حياتنا ، حياتنا بأسرها!!

كان أخ لنا يعاني من الجنون . حاولنا معالجته بشتى الوسائل وطرقنا باب كل طبيب ودعونا الله كثيرا ، دون جدوى . كان يعاني من نوع من الجنون يدعى «الفشلانوس» . ومن اعراضه ان يجد اي شيء يؤدي الى لا شيء . وان لا جدوى من اي محاولة او جهد وان الهدف المقصود عدم او نكتة في أفضل الأوضاع . كان يقرر ان كل شيء الى الفشل حتما او في طريقه الى الانهيار فالتهاوي فالفشل . وكنا احيانا نضيق منه ،نعزله عنا فيزداد هياجا وتشتد نوبة الهياج ليلا فنرى عند مرورنا بزنزانته في طريقنا الى قاعة نومنا حول الملك والملكة ، نرى ضوء من اسفل باب زنزانته مضاء طوال الليل حتى مطلع الصباح . كان يهذي بكلام عميق رهيب سرعان ما نسد آذاننا بأصابعنا ونفر كلا الى زاويته في القاعة قبل ان نؤمن بكلامه المجنون او يهز فينا ايماننا .

أواه .. ما ابشع ان يتسبب انسان بخلخلة عقيدة وايمان أسرة كاملة . إيماننا بماذا ؟ ايماننا بوجود الملك والملكة احياء بيننا وشعورنا بالدفء تحت وهج نظراتهم المطاعة وحرصنا وبذلنا من اجل بقائهم وخلودهم . اما اخي هذا - هداه الله او هده - فقد كان يسخر مما نفعل ويدعي اننا متخلفون واحيانا عندما يثور يقول اننا كفار نعبد امواتا او اصناما كما يحلو له ان يتفلسف . لا يريد ان يعقل ان حياتنا بدون الملك والملكة هي الضياع بعينه والتشرد وعدم الانتماء الى اي شيء . يريد ان يقنعنا ان الملك والملكة تمثالان ليس الا . تمثالان من حجر . الواقع انهما لم يتحركا او يبدلا وضعهما في الوقوف ابدا لكن هذا لا يخدش كونهما احياء .

لا زلت اذكره في احدى نوبات تشنجه عندما امسكه والدنا من معصميه فافلتهما منه بعنف وجدق في عيني والدنا وصرخ بصوت كالرعد - كل الأحياء تتنفس ، فهل رأيت لهاذين التمثالين ، الصنمين صدر يعلو وينخفض بالأنفاس ؟

ولمحت انا واخوتي واخواتي من خلف الجدار حبة عرق سالت على جبين ابي وقضمت انا شفتي السفلى من شدة الحيرة والخوف ثم بكيت لأن شفتي خرج منها نقطة تكاد لا ترى من الدماء . كنا ايامها صغارا وكنت انا صغيرة ومدللة واكره العنف والدماء . وكنت بعد كل معركة داخل دماغي الصغير انتهي منها بأن اقطع حلقة الأسئلة وامسك بايادي الأسئلة وادور معها في حلقة مفرغة ملعبها عقلي الصغير ، انتهى من هذه العملية بأن العن اخي وفلسفته التي ادت به الى الجنون وقذفتنا نعاني من الغرق والحياة وسط امواج هائجة ومتلاطمة . ولا زلت اذكر ذاك الضحك الهستيري الذي رج بدن أخي وأسال دموعه من جانبي عينيه وجعله يسقط ارضا يتولى من فرط الضحك وكل هذا لأنه رآنا كلنا ونحن نستجدي الملك وزوجته ان يهبا لنا ولي العهد خوفا من ان تطالهم يد الأجل فتحرمنا من أي أثر لهم . ولكن دعونا من أخي هذا فهو اعمى وجاهل ومجنون .. وان كان له بعض حكمة ..... لكنا سنظل نتجاهله .

هانحن الآن نعد العدة للاحتفال بتاريخ تولي الملك العرش . اخذنا نكنس القاعة ونغسلها بماء حار وصابون ثم فرشناها بالسجاد وهانحن نرفع الزينة في تناسق وننشر الزهور فوق ممشى مخملي أحمر خاص بالملك والملكة . وهاهي أختي الخطاطة تخط اللافتات المعبرة عن الفرح العميق والامتنان الصادق الذي لا تقوى على وصفه الكلمات ، وفي قمة فرحتنا وفي عز نشوتنا وانهماكنا بترتيب الاحتفال جاء أخي المجنون سامحه الله كثيرا وهو يمسك بمنفضة غبار وأسرع كالارهابي قبل ان نتداركه وأخذ ينفض وجه الملك وعنق الملكة وصرخنا كلنا صرخات متلاحقة وأخبأت وجهي الصغير بين يدي في هلع يالهول ما فعل ، كأنه أهاننا ، كأنه ضربنا بل كأنه قتل ! واندفع أبي ودفعه عن الملك والملكة والعرش وصرخت انا باكية وانا ارى أبي في اعنف مشهد في حياتي . أخذ يصفع أخي حتى اسقطه ارضا فواصل يركله حتى دحرجه كالبرميل واغلق عليه باب زنزانته . وأخي لفرط جنونه كان يضحك . كان اخي هذا غريبا وضحكه غريبا . عاد ابي منفعلا وصدره يعلو وينخفض . جاء يربت على رأسي وانا انتحب في تشنج عصبي لم استطع تطويقه،آذاني منظر أبي وهو عنيف واذاني منظر اخي وهو

يعامل الملك والملك كما يعامل الأثاث وكنا جميعا غارقين ومغمورين بالخزي تجاه الملك والملكة فلم يقو أحد منا ان يرفع عينيه . وتوقفت دموعي بعد ان احتضنني أبي الى صدره واستقر خدي على صدره وكدت اغفو على حنان صدره . كنت مدللة ومحبوبة وكنت احب أبي حباً جما، توقفت دموعي لأني كنت أشعر بجرح جرحني العنف وألمني وصدمني قلت لأبي بنبرات طفولية : اني اشعر ان في قلبي ثقب وان تيار هواء بارد يتخللني عبر هذا الثقب ، فوضع كفه الكبيرة السمراء فوق صدري ليسد هذا الثقب المزعوم . وأخذت وأنا في حضنه اتذكر أخي وهو يُصفع ويُركل ويرعف .. بينما هو يضحك . منظر غريب ، دام ألمني واوجع صدري . ولأني كنت مدللة وما اعتدت تحمل الآلام فقد سقطت يومها مريضة ولازمت فراشي . وكنت كالأعزل من السلاح امتد في فراشي بجسد لا يتسلح باي مناعة . وهاجمتني الحمى ولم أع شيئاً الا وافراد أسرتي يروحون ويجيئون كالأشباح وأمي تضع فوق صدري قطعة شاش مبللة وترفعها لتغمسها في إناء ماء ثم تضغطها وتعيدها فوق جسمي لتمسح بطني وصدري . أبي يضع كفه فوق خدي في قلق ويروح ويجيء . واخوتي يسترقون النظر الي بسرعة ويعودون لينهمكوا في اتمام الزينة واللافتات . ليلا ماانسحبوا جميعا وتركوني وحيدة فقد كان اليوم الأحتفال ورغم الحمى والمرض والعرق الا اني وعيت وعذرتهم . كان صوت أخي يصل الي . كان واضحا انه موجوع او ينزف فقد كان كلامه مخلوط بالأنين وممزوج بالأنفاس ، شعرت نحوه بالحب والحنان والحنين وكان صوته واهنا وهو يقول :- كل شيء الى لا شيء . تنتظرون قادما ابدا لن يطل . حطموا الأصنام وابدأوا من لا شيء . ابنوا القاعدة ، ابنو القاعدة وان استغرقت سنيناً او اجيالاً لكن ابنوها بالحجر ، ابنوها بالعرق والآمال ، ابنوها سليمة ، قوية ، قوية ودائمة . افهموا وعوا . اعملوا على ان تفيق ادمغتكم من هذا السبات العميق اللذيذ . حركوا الأفكار تتحرر لتنجب ولا تتدخلوا في اختيار الزوج . اعملوا على ان تفيق صدوركم وترضع بالصدق رضعا من الاحاسيس . حدقوا في المرايا ، انظروا الى ما هو داخل الوجوه والأبدان . انظروا الى الكيان . اعيدوا اليه ساكنه اعيدوا اليه الضمير . لا تهتموا ان ضحكت منكم الشعوب لكونكم كنتم حميرا . لكونكم تأخرتم . لكونكم جئتم في ذيل القافلة . لكون حملكم من التخلف ثقيل . لكونكم كفرتم وهذان الشمالان خير دليل . لا تهتموا . فليس من الخطأ ان نخطئ ولكن الخطأ ان نستمر فيه . حطموا التماثيل فقد حطموا منذ دهور اصناما

كانت لهم آلهة . اما انتم فما هي لكم هذه التماثيل ؟ اعتقادات ؟ عادات وتقاليد ؟ ماضٍ مشرف ؟ ما هي ؟ وهم للسعادة ؟ سراب للأمل ؟ حطموا التماثيل واحرقوا حتى الأشلاء ودوسوا الشظايا . لستم اول من فشل ولا ثاني من فشل ولا آخر من فشل . لستم اول من اكتشف فشله بعد مضي عمره .. كلا ، ولا انتم اكثر من نقطة ماء في محيط الفشل العريض نقطة ليس الا ... وكل عبد يؤلمه فشله ويؤرقه ويحز في نفسه ويصعب عليه الاعتراف به وتجاوزه ، لكن الوقت لا يكون ابدا متأخرا في أية لحظة على البداية . فالبداية تبزغ في شمس اي يوم وتنبت فوق اي ارض وتستقر في درب اي قافلة .. بل وتصير قدر كل من يصدق في طلبها .

وداهمني النوم وتداخل صوته في غرابة لذيذه مع اغفائي حتى غلب النوم علي وساد في منامي الصمت الذي له رنين وشعرت اثناء نومي بشيء يهوي فوق صدري . شيء ثقيل وكأنه جبل ويضغطني بقوة فوق فراشي حتى خلت ان معصمي قد حفرا شكلهما فوق الفراش وان بطني تكاد تهوى الى داخل الفراش ورقبتي صارت كالورقة . كأن هذا الشيء القوي يسحقني ويمتص مني الروح او الحياة او النفس . كان كابوسا مقيتا اردت ان اصحو منه لأقطعه فلم استطع ، كان كابوسا فظيعا . فقد تسارعت دقات قلبي ورأيت نفسي اصرخ دون صوت . احسست اني اتلوى كالأفعى فوق فراشي محاولة الفكاك منه دون جدوى ، فدب في جسدي الوهن و استسلمت لذلك الكابوس سال عرقي .. رأيت تلك القوة الغريبة تتجسد في منامي في شكل عجوز او جنية . ترتدي جلبابا اسودا وحجابا اسودا . وخصلة رمادية قد قفزت فوق جبينها المتماوج وفمها متجعد ومزموم مطبق على لثة ليس فيها اسنان . ومع ذلك كله كان صوتها المتهدج له رنين يشبه رنين الصمت ، وكانت تتلكم دون ان تفتح فمها المزموم مرسلة من عينيها نظرة آسرة جاذبة لم استطع تجاهها الا ان اسمر عينيٌ داخل احداقها المنطفئة البريق وكانت تقول لي :

«كالدائرة المفرغة ارسم حياتي
ارسم دوائر مصغرة
ارسم كتابا ، ارسم قلما ، ارسم عبارة مترجمة

ارسم علامة لبناتي
ارسم خطوطا مربعة
هذه الحياة يابناتي
عبارة عن قنبلة
موقوتة لزمن لا أحد يعلمه
هي الحياة ، ملغمة
مجردة من كل معنىً اسمعه
حب وخير وملحمة
شعر .. انا لا افهمه
استوضحي عنه اباك
فانه قد يشرحه
ياكوكبا متقدا
بالنور اسكن معه
وانت لي
وانت نعم الملهمة . »

وتحملت زائرة منامي فلم اقاومها ودب كلامها في دمي ثم صحوت في يسر وراحة وقررت ان اذهب الى أخي . كان ثوب نومي ملتصقا بي من شدة الحمى والعرق . شعرت بهواء الغرفة اعصار ضممت نفسي بيدي، وانا ارتعش بردا . وفي طريقي الى زنزانة أخي لمحت من الباب المفتوح اسرتي وهم يرمون الملك والملكة بالزهور . ولأول مرة يصعقني الجماد . النظرة الجامدة في وجهي الملك والملكة واليد الحجرية التي تمسك بالصولجان واكتاف الملكة الناصعة من الطلاء الشمعي اللامع . اواه ... واقشعر بدني وانا ارى اسرتي تهتف لتمثالين . يالهول ما يجري . واخي الكبير يخطب والى جانبه كائن ماء يتجرعه كلما جف زيقه وبدت الفرحة غامرة لجميع الوجوه .. تركتهم واقتربت من غرفه اخي . كان - وان لم اصدق - يتكلم قائلا :- فجروا الخطأ ، انسفوه من اعمق عروقه . فجروه قنبلة . فجروا آثاره شظايا تتطاير وتدمي الأرض

والجو والارجاء . دعوها تنفجر . وان لم تبق على شيء ، لم تبق على شيء عاش اساسا في ايام الخطأ ولنبدأ ولو حفاة ولو جائعين ولو افترشنا الطين والتحفنا السماء . الصمت على الخطأ المتكاثر المستعر يعني شهداء أكثر .

ودقيت الباب فصمت أخي وسمعت خطواته تقترب من الباب في ترقب . فادرت المفتاح وانزلقت الى زنزانته واغلقت الباب بظهري . ووقفت أمامه وحملق في بذهول وهمس - مريضة ؟

وهززت رأسي وكنت ارتعش وكان هو ايضا مرهقاً وتحت عينيه هالتي تعب ويأس وشفتاه يابستان ، شعرت اني لو لم ارتم في حضنه فاني ساسقط لأن ركبتي تغلب عليهما الوهن واردت ان يغمرني في حضنه ومن شدة تحكم الحزن في تلك اللحظة تمنيت الا اعود الى هذه الحياة كما هي الآن وحدق في وجهي في تعجب وتساؤل . ارتسمت ابتسامة على شفتي ، قلت له اني قد اقتنعت ان الملك والملكة تمثالان وانه هو العاقل ونحن المهرجون وانه كان صبورا وكان بطلا بل كان شهيدا ، وكأنه قرأ في الابتسامة الواهنة كل القول فامسكني بابتسامة قوية وضمني اليه .

يا الله يا الله . اذا كان كل الشهداء في رحابك الخالدة احياء فهل نطمع اخي وانا بفيض رحمتك وان يكون ولو بعض الأحياء شهداء ؟ ليس في سبيل الدين ولا الوطن ولا في سبيل الولاء لشخص او قدوة .. لا ابدا ، وانما شهداء في سبيل انفسنا . في سبيل غدنا الأفضل . حياتنا نحن . متعتنا نحن ، عواطفنا نحن ، سعادتنا ، نجاحنا ، صحتنا ، جمالنا ورضانا نحن . شهداء في سبيل هدف اناني يحوي كل اهداف الشهادة النبيلة وهو الذات وحبنا لأنفسنا .. ولنجعل محركنا هو حبنا لأنفسنا والتفت الى أخي الذي تركني وجلس في زاوية الزنزانة وقلت له :

- يعتقدون حسب حدود معرفتهم المحدودة وخبراتهم المعدودة وتجاربهم القليلة ان هذه هي الحياة ،لا يعملون على توسيع معرفتهم ولا تنويع خبراتهم ولا زيادة تجاربهم . الحياة عندهم ان يأكلوا ويشربوا ويتزوجوا وينجبوا . وان يحافظوا على شكل الحياة السعيدة الذي اتفق عليه بنو البشر من الخروج الى نزهات وشراء الأشياء وزيارة الآخرين . اما انا فأفكر في ادمغتنا

الفارغة وافكر في المستقبل . افكر في العقل والاحساس . مثلا لو كان لي ابن او ابنة ما ذنبهم لانجبهم في متحف كهذا ؟ وعندما يكبرون ويعون ويدركون كيف وبماذا اعوضهم عن لحظة طفولة ولحظة لعب مرح نظيف لم يذوقوها ولم يجربوها ولا عرفوها . صحيح انه لايد لي كوني موجودة الآن هنا ، وانتمي الى هذا المتحف المخيف وهو جنسيتي ووطني . لا يد لي كوني رأيت النور في هذا المتحف ولكن في يدي الا ازيد عدد افراد هذا المتحف واحدا او واحدة أخرى من التعساء الضائعين . طفل صغير غدا يكبر ويصبح واحدا من الأغبياء . كلا ما ذنبه ؟ ماذا اقترف وكلنا نعلم انه قادم الى الحياة مسير ومجبر ؟ كيف ادفعه من داخل الأحشاء الدافئة الى حياة موحشة وادفعه رغما عن أنفه الى دنيا سيحيا فيها مقيدا بالحرمان. لا هو يعرف الشمس ولا يدرك معنى الأمل او حتى الأمل في ماذا ؟ ولا يعرف شكل الدنيا الخارجية وكأنه طير صغير ظل طوال عمره داخل البيضة وما غادرها يوما . اوليس هذا حرام علي ؟

كان أخي يتنهد فذهبت اليه واتكأت على الجدار ساندة رأسي على كتفه وغفنا كلانا منهكاً . وفجأة اقلق غفوتنا صوت انهيار شيئٍ ما واعقبه صوت صراخ مدوٍ، مدوٍ فعلا يصم الآذان فانتفضت انا من الخوف وقفز اخي واقفا ودارحول الزنزانة والصراخ يعلو ويتداخل في الخارج واخي يجوب داخل الزنزانة في قفزات عصبية قليلة الحيلة كالأسد المسجون . ماذا حدث ؟ وتذكرت ان الزنزانة مفتوحة منذ فتحتها انا حين دخلت فامسكت بيد اخي وفتحنا الباب وخرجنا ، ذهبنا الى القاعة والصرخات تتغير الواحدة تلو الأخرى لتصبح بكاءً ونحيباً ، ووصلنا االقاعة وكان المشهد الرهيب .. كان التمثالان قد تهاويا على الأرض واسرتنا بجميع افرادها انهاروا على الأرض يبكون ويمسحون وجوههم باجزاء التمثالين المكسرة يبكون في التياع وحرقة مقيتة . وتبادل اخي وانا نظرة ثرثارة ودخلنا دونما اتفاق وتناولنا اجزاء التمثالين واخذنا نرميها في اي مكان وندوس في سعادة هيستيرية على الشظايا الصغيرة ، وأسرتنا تنتحب لكن لم يحاول أحد منعنا . كانوا اوهن من القيام بأي شيء سوى ارسال الدموع في يأس وانهزام . ارسل لنا الله الحل . ارسل لنا الله التدبير . اليوم نجبر على ان نخطوا ونرفرف باجنحتنا على أمل ان نتحرك ونركض ونتسابق وقد نطير . اليوم نخطط لغدنا . اليوم نغسل

عقولنا واجسادنا واحاسيسنا من كل ما علق بها من توارث ومن سلبية ومن انهزام . اليوم نفارق عدوا امتزج بدمائنا هو التواكل والكسل . اليوم عرسنا ، اليوم عيدنا ، اليوم .

وبدد افكاري الراقصة فرحا وغبطة أبي بوجهه المبلل وهو يزحف ويمد يدا مخذولة مرتعشة وتناول فصاً فيروزياً صغيراً بقي لامعا تحت انقاض التمثالين ، اذكر انه كان يزين حذاء الملكة

حملقنا أخي وأنا في ابي الذي تناول الفص الفيروزي وجلس ماسحا دموعه وهو يضم الفص كأم اعادوا اليها بعد المعركة احد ازرار قميص ابنها الشهيد . وسالت دموعه وزحفت أمي وبقية اخواتي واخوتي وتجمعوا حول ابي وقد جفت دموعهم أوكادت من فوق خدودهم ، اخذوا يمدون اياديهم الراعشة محاولين لمس الفص الغالي وتبادلوا احتضانه الى صدورهم وكأنهم يتباركون به . فنظر أخي الي واحسست بوهج نظرته فوق جانب وجهي ولم اقو على الالتفات اليه . كان سيسألني ما معنى ما حدث ؟ وما كان في القدرة لأجيب لأني كنت اكابد رغبة ملحة وشديدة في البكاء . لكن أبت نفسي التي اتقدت بالأمل القاهر قبل ثوا ن ان تنفصل عن املها وترتمي في احضان عدو الأمل وعدوي واحسست بيد أخي تمسكني وسمعت صوته يهمس - لا أصدق .

وكنت أعرف ان هذا كثير . ونهض افراد اسرتي رافعين الفص الفيروزي فوق كف ابي المنبسطة في ولاء وتعظيم واخذوا في جمع الأجزاء المتبقية وبنوا منها كومة وفوق قمتها غرزوا الفص وكأنه علم وواصلوا الاحتفال واصلوا الاحتفال بكل بساطة وتصميم . شعرت اني اترنح من شدة الصدمة . هذه الأسرة تتحرك وتحيا وهي في عداد الأموات . هذه الأسرة تصر على موتها وتعتز بموتها كما يعتز البطل بتاريخه والمبصر ببصره . هذه الأسرة اسرتي وهي منبع الاحباط .. احباطي . فهل ابقى عليها ام أرحل ؟

ولمحت اثوابي فوق حبل الغسيل الى جانب اثوابهم وقمصانهم ولم اقو على التنفس من شدة مكابدة البكاء . هل اظل لأموت أم اني سأستطيع ان احيا ، أم اغسل يدي واغادر .

هل ترى ياشقيقي في الأفق المظلم ولو نقطة ضوء من اجلها ابقى واشيخ وافنى . هل لهذه النقطة وجود ؟ ورفع أخي وجهه الى الأفق الأسود وغمرنا الدجى وكأنه يؤكد نفي السؤال .

رأيت خطوات اخي تتراجع وسمعته يقول :- ما عدت ادري بماذا اودعكم . اختي واسرتي ، الكلام من كثرته والحاحه اخرسني .

وتنصلت يدي من داخل قبضة أخي ، احسست انه سيغادر واحسست اني سأبقى . سألني - كيف رأيت نقطة الضوء ، انا لم أرها . كيف شعرت بأي جدوى للبقاء ؟ ليتني شعرت .

ورايت اخي يبتعد . اجل مهما كان جهد الانسان اسطوريا الا انه حتماً ينتهي. ماعاد سيان عنده ان يحيا في خوف او في امان او في نعمة او في حرمان . ومضى اخي وبقيت انا ابحث عن منالي كما ارسمه واتمناه وعن تحقيق حلمي في الحياة.. ولازلت في المتحف ، انشد الخلاص واتمناه.


ما هي البداية ؟!

سأل الله قطرة مطر فوهبه الله سحابة كريمة وشابة تهطل امطارها بغزارة كلما تغني بشكوى حزينة او اذا ابتهج أو تغزل بها كأجمل انيسة .. فترسل مشاعرها رذاذ فقط اذا ما حن للمدينة او اذا ما احبطته المدينة بذكراها الحزينة .. اروت السحابة ارضه بروحها الحلوة .. اشبعت الاجواء بالانتعاش فعاشت العصافير على الاغصان والمحصول عاش اروت حقوله الثلاثة وانبتت زرعه والزهر والثمر .. غسلت بيته وسالت فوق جبهته وسقت حتى نباتاته المتسلقة على البوابة وعلى فروع اقرب الشجر .

في الليل امتد على ضوء القمر فوق الارض المبللة يتأمل تضاريس القمر .. يتوغل في التأمل فيحدد طرق وجبال وبشر داخل قرص القمر . يكمن سحر القمر وفتنته في انه يشق رحم الدجى المثقل باجنة الظلام . ينبع حسن القمر من انه يقف رغم السواد وينير للقوافل الطريق ويؤنس الوحيد .. بالنسبة له ..... القمر أكثر بكثير انه صاحب لم ينجح بعد في اعطاءه اسم بشري ، اخذ يرتشف القهوة في هدوء وتلذذ . لا يشرب القهوة في فنجان لأن هذا في رأيه يُعد تذوقاً للقهوة لا شربا لها .

احس بالاحساس الذي نحسه كلنا يفرض وجوده علينا في لحظات عشوائية وحميمة واحيانا غير مناسبة له وهو ان الحياة حلوة وفي نيتها ان تكون احلى . هذه الارض الخضراء التي فيها كل ما يحتاجه ، اليست له ؟ اليست اقاربه وامه ؟ الم يبك حين رآها ذات موسم ظمآنة ومتشققة ؟ هذا الدار الذي لا ينقصه شيء ايضا له . حتى الحكم والسلطان على هذه البقعة من الارض الارض له . كلما احس بكف الوحشة تلطمه وقدم الوحدة تركله هرع الي قلبه يجد في استقباله هذا الارتباط العميق والصادق بالله . تذكره له في كل حين اينما حلت روحه حل عشق الجمال وتقدير للنعمة وادراك لمدى سخاء الخالق . ها هنا لا تسرق منه اللحظات ولا يقف مشدوها لسرعة مجيء غروب الشمس . لا يصحو ذات صباح فيفاجأ بالشيب قد اغتصب سواد شعره . لا يمد يده فتخذله الرعشة .

الايام هنا حلوة وهنيئة تسيل فوق عموده الفقري لها دقة رقصة من رقصات الاعراس . الفراشات والفراشات في الفجر والصباح كالكلمات الحلوة وتحيات الخير والنور تفعل فعل العطر في الاجواء . ترفرف داخل متاهات القلب الذي يعيش بلا نديم وترسل لفراغ الكيان

حرارة ودفء الزحام . تهبه الاوقات من الراحة متسعاً . العشب الاخضر بمساحاته الواسعة يذكره بالماضي . يتدحرج فوق مخمل العشب ويضحك من نفسه كثيراً كأن الطفولة أمس ! حين كان يمسك الالوان الشمعية ويرسم شمسا وورودا يرسم نحلة مثقلة بالرحيق يتذكر الصبا حين صادف صبية صغيرة تبكي وتحدثا ثم اعتادا الحديث واللقاء ..

يتذكر بداية الشباب حين استغفر الله كثيرا وودع الفتاة واتجه الى عالم مقطب الجبين .. اما اليوم فقد آمن ان مملكته هذه اذا لمحها او سمع عنها انسان فسوف تغتصب . يجب ان يخفي نعم الله عليه لان الاخ قد صار نمرا يقف على صخرة عالية منتظراً اول فرصة لنهش عنق اخيه . ادرك هذه الحقيقة تماماً كما يدرك الحافي الذي ادمى قدميه انه كان يخطو فوق الاشواك .
ادرك هذه الحقيقة تماما كما يدرك الحافي الذي ادمى قدميه انه كان يخطو فوق الاشواك .
ادرك هذه الحقيقة عندما هجر مدينته .. فر ليلا عاري الصدر ومدينته عروس تتدلل باضوائها وعطر نسماتها . في تلك اللحظة كرهها لانها حتى وهو يودعها لا زالت حسناء ومرغوبة . ظل يركض حتى وجد هذه الارض .. كانت فارغة لكن خضراء وطيبة . تكاتف مع الايام وجعل منها مملكته . في كل ليلة كان يتذكر عروسه المدينة والتعذيب الذي تجرعه من اجلها .

« لو تدرون قد خط العذاب بمشرطه على صدري شكل الوطن .. قد حفر خريطتنا التي لا يدمي قلبها خيوط عملية تشريح ».

لكنه سينسى .. سينسى المدينة والعملية والجراح .. فذكرى المدينة اليوم قد خفت كثيرا عن اول ليلة لدرجة انه متوقع ان ينسى وجودها واسمها وتأثيرها . اليس النسيان رائعا ومريعا ؟ ترى كيف صارت المدينة ؟ هل تعلمت ان تكون رحيمة بمودعيها وبالقلوب التي تزفر من حرقة الدموع ؟ هل تعلمت ان تكون عاصفة وممطرة عند الوداع حتى يعد المودع هذا توديعا منها ؟ هل لا زالت ابواب دخولها والخروج منها مغلقة ؟ وذاك الانين ... هل لا زال برغم الوهن يفترش الشوارع ينشد صوت باطن الارض وقاع معنى الوطن .. تنهد والنعاس يتجاذب معه الحديث حتى غلبه النعاس بحلو كلامه فنام فوق الطين البارد . نام وحلم واراد ان يفيق من حلمه لكنه فشل . بحر داكن غريب لا ضوء فيه ولا بريق وهو يقف على الشاطىء يرى من مكانه موجة في البعد آتية ومعها رغاوي بيضاء .. يركض ليلاقيها وهو جذلان لكنها تصل الى الشاطىء وتغمر قدميه تاركة على الشاطىء حوريات بحر تحتضر والسنتها ترتعش وشفاهها دامية ..

ماذا لفظ البحر ؟ واخيراً ايقظته الشمس من حلمه . نهض يتأمل النور وهو ينشر دفأه على اوراق الشجر وعلى سطح داره . وفي لمحة بصر شاهد مجموعة من الرجال في ازياء وقبعات عجيبة يقفون على ارضه . مسح عينيه وحدق ملياً ليطرد بقايا الحلم . لكن ما رآه كان واقعاً . جماعة من الرجال وفي ايديهم اوراق واقلام وادوات مختلفة .. فهرع اليهم متوقعاً ان يتلاشوا عند وصوله الى مكانهم وان يكتشف انه كان يتوهم وان يضحك من نفسه كثيراً . لكنه وصل فوجد مجموعة الرجال كما رآها من المسافة البعيدة .. كأنهم صورة عنيدة .. اشكالهم كالقطط وبعضهم يضع على انفه نظارة شمسية واحدهم يرسل من غليونه دخانا رائحته تثير الاشمئزاز والآخر فاقد سنتيه الاماميتين ومع ذلك فاغر فاه ببلاهة متناهية .. مالوا على الارض يقيسون طولها .. لديهم أجهزة والات عجيبة التكوين .. يعملون بصمت ويأمر احدهم الاخر بنظرة من النظرات تجرأ الشاب وكسر جدار الصمت - من انتم وماذا تريدون من ارضي . ؟

اجاب مولاهم وهو منهمك بمراجعة ارقام بين صفحاته - اشترينا هذه الارض وهي لم تكن ملكاً لاحد .

- انت تمزح ، حتما تمزح !

سرح الشاب .. الارض ارضه لكنه لم يدفع ثمنها ولا يملك اوراقاً تثبت ملكيته .. لكنها ارضه بلا نقاش او مساومة .. صاح - لكن هذه ارضي فعلا اعيش عليها منذ سنوات واحيا مما يرزقني الله فيها ولا يمكن ان اتخلى عنها .. مستحيل .

- نحن لا نؤمن بالمستحيل .

- انا بعون الله الذي جعلها كما تراها .

- ما نراه لا قيمة له نحن سنقشر وجهها ونبني فوقها مســـ ...

لم يكمل الرجل كلمته وقال لرجل يقف بجواره - الحفر سيبدأ غدا . صمت الشاب ، طحنته قلة الحيلة . لكن كلا !! فحياته بدون هذه الارض فعلا لا استمرار لها . جذوره وعروقه واصله وتاريخه فوق هذه الارض . فكيف يمشي بعدها رافعاً رأسه ؟؟ وهل يكون للانسان غد ما لم يكن له ماض ؟ .. هناك اشياء معينة او تفاصيل صغيرة او وقائع كبيرة في حياة كل منا يشعر بضرورتها بدون جدال ولا تفكير . التفت وسأل الرجل بلهجة ظهر فيها القهر لماذا تختار

.ما هو لغيرك والاراضي امامك كثيرة ؟؟ لماذا تجني على اعذل ؟؟ فأجاب مولاهم بلا مبالاة - هكذا نحن ولدتنا امنا ...... جناة .

- هذا ليس اسلوب تفاهم .

- اي تفاهم ؟ لا تضيع وقتنا يا بني هذه ارضنا .

صاح الشاب وصوته يتهدج من شدة الانفعال .

- لكن لن اسكت . سارفع قضية واثبت ملكيتي . سأتشرد وابقى بلا مأوى على ان لا تكون الارض لك انت .

- اجاب الرجال باستخفاف - قضية ضدي انا ؟ اقصد ضدنا نحن ؟؟ حسنا ... حسنا .

- وسأكذب وازور !! - افعل ما تشاء .

مضى الشاب ورأسه كاد ينفجر . داخل داره . يا لقلة الحيلة وعجز القدرة لكم هما قاهرتان . فلا شيء فعلا يثبت ان الارض ارضه . تأمل فراشه وحوض ازهاره كمن يتأمل نعمة تحتضر او في طريقها للزوال . افقده الموقف عقله للحظة فأخذ في حضنه حجارة وركض يرميها عليهم . لكن بالرغم من ان الحجارة حجارة ارضه الا انها كانت ضده ولم تصب ايا منهم : قرر في النهاية ان يزور المدينة برغم الم ووجع هذه الزيارة ليستعين بمحام .

« عروسي المدينة وداعك كان هروبا منك ولقائك ايضا لقاء اجباري .. لم تعد ارضك كما كانت والا عادت سماؤك مثل السماء . »

دخل الشاب في متاهات القضية واقتنع المحامي به وبقضيته .. توغل الاثنان في كل خيط من الممكن ان يقوده الى فوزه بالارض .. لجأوا حتى الى الكذب والادعاء والتزوير لكن بلا جدوى فالاحداث دوما ضده . تسأله المجاديف المحطمة ، لما انا ؟؟ لما انا يحدث لي كل هذا ولما انا تعاكسني الرياح والامواج ؟؟ كثر اعداؤه بمرور الوقت على القضية فقبلوا ماضيه .. فتشوا عن الانين القديم وصداه في صدره والوجع الراقد في جسمه .. نبشوا قبور افعاله .. افشوا سر الخريطة المحفورة في صدره .. جعلوا من هروبه قصة اسطورية حتى كاد هو نفسه يصدق انه سفاح ومجرم . دارت الاتهامات الموجهة اليه تطحنه ، تحوله الى اضعف الكائنات .. تجعله مثل الحمامة التي عرفت ان صغارها صاروا في فوهة مخبأ الافعى فركضت مهرولة لنجدة صغارها . لكن الافعى عاد والحمامة لا زالت هناك تحاول انتشال صغارها فصارت

تحاول تخليص اعز اعزائها ونجدة روحها في ذات الوقت . الافعى الجائع يخرج لسانه وهو المتخم بالسموم ويصوبه في كل الجهات صار الشاب الآن يدافع عن نفسه ونســـي الجميع وهو اولهم ان القضية اساسها الارض لا هو .

صاح في وجه القاضي وحاضري الجلسة – قتلني حب مدينتي . دفعني الولاء لها لاسقاط نفسي في شباك وقضيت العمر بعدها اتخبط لاخرج .

لم يفهموا وكي لا يظهر عدم فهمهم قالوا انه يتهم الولاء انه يدفع المواطن الى الهلاك والفناء وانه يرمز بالولاء لحراس الوطن وخدمه . دارت الاتهامات تطحنه ، تناثره ، لا تترك منه جزءا الا وتجزئه تقوله ما لم يقل . وهم يقفون امامه بزيهم الداكن الموحد يكشفون عن انيابهم . تأمره نظراتهم ان يكون جبانا . تحفظه عن ظهر قلب ان الجبن سيد الاخلاق . يعلمونه بأن في قلبه ما لا يوجد في قلبه – انك تريدا بلدا كالبحر . الضعيف يؤكل فيها والقوي يأكل حتى المرض . يبتلع كل كنوز الاعماق .

أنا ؟؟ بل اريد واريد واريد .

ويبتلع مع ريقه الكلام والوصف والحق والأحلام يبتلع كل كنوز احلامه ويكتفي بالسماع عمن يبتلعون كنوز الاعماق .

– قد جعلتم البحر كله كرغاو بيضاء اركض لاتمتع بملمسها فأجد عند قدومي حوريات البحر ميتة متدلية اللسان .

وقف القاضي فاقداً سنتيه الاماميتين متهما اياه بانه يلمح ان حرية القول مصادره وان اللسان مكبل . هتف – انا متى قلت هذا ؟

دارت الاتهامات تطحنه . تحقنه باليأس . تسد في وجهه كل الابواب . تجعله يكاد يترك الحبل الوحيد الذي يربطه بالحياة اتهموه انه يتبجح على الولاء ثم اتهموه أنه يرى ان حرية القول مفقودة . فكيف يفعل وكيف يقول حتى ينفذ من ما يصطادونه من اقواله . صاحوا فيه – انت تريد ان يتحرر اللسان فيوقع الأخ في أخيه . تريد اللسان ان يقول كلمة لها الف تفسير ومعنى ، تريد ان تخرب هذه البلاد .– انا ؟؟

– تريد ان تقول ان المواطن صار مجبرا على قول ما لا يريد ، اليس كذلك ؟ وان فكره صار مادة خام لا يستخرج منها شيء ولا يسمع عنها ولا ترى ، اليس كذلك ؟ تريد ان توهم

المواطنين ان المجتمع صار متخماً باجهزة التسجيل وبالصراصير .

- أنا ؟ الشكوى لله . لن ادافع عن نفسي فهذا الدفاع عسير ماذا عساي اقول لعلكم ادرى .

أنما الشكوى لله . افعلوا ما شئتم ، اما انا فاستغفر الله كثيراً على اي خطأ او اثم ارتكبته . اني زائل وهذا الكون زائل وانتم كافعالكم زائلون . انا ابتغي رضى الله لا رضى زائل لعل الله يقبل توبتي .

بدأ الحاضرون يتهامسون ويتبادلون النظرات التي تدل ان في الامر شيء . والشاب يقف وقد كست وجهه مسحة من اللامبالاة والتسليم لأر الله . بدأ الحاضرون يخرجون من المحكمة بسرعة وفوضى واستغرب الشاب خروجهم بذاك الشكل . لم يبق في القاعة الا القاضي وهو فقط .

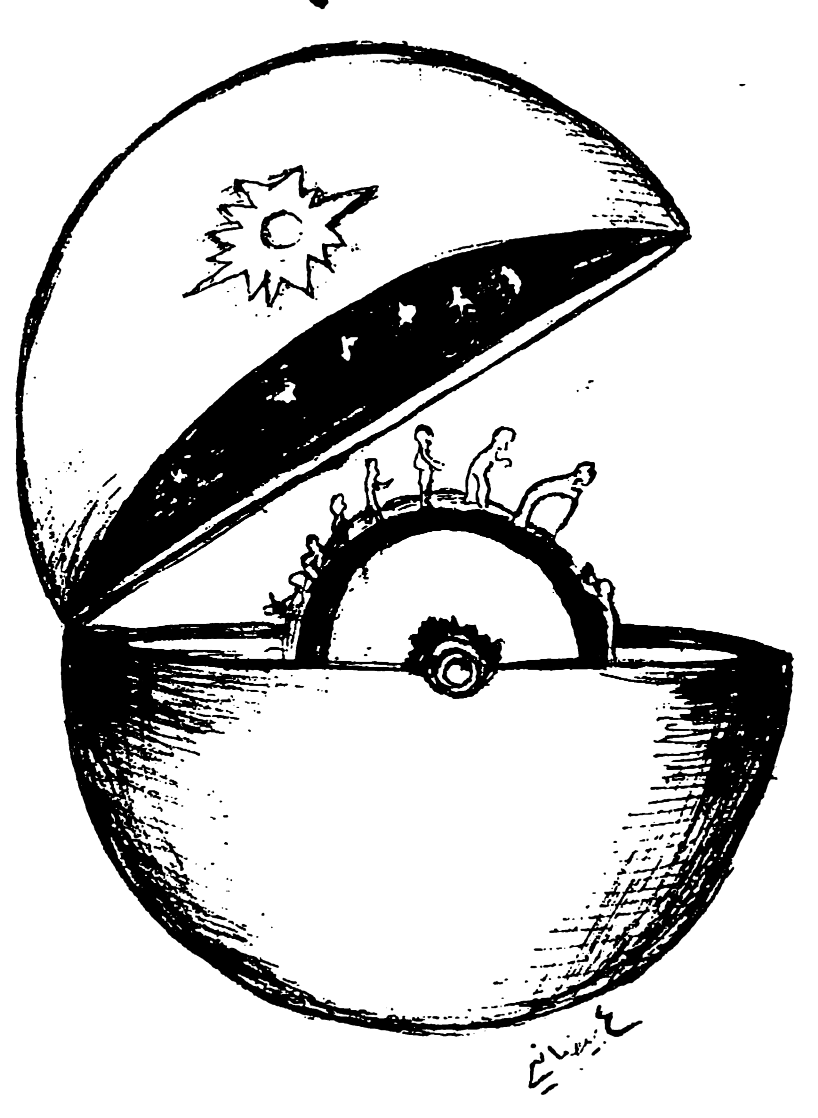
فقال له القاضي - كررت كلمة زائل ومشتقاتها كثيراً . يبدو انك تنوي افناء المكان بمن فيه ولكن سيتم كشف القنبلة وإفشال مخططاتك !

ابتسم الشاب ابتسامة ساخرة ولم يتمالك نفسه فضحك ثم ارتفعت ضحكته حتى صارت قهقهة . ثم هتف - اما الفناء فإن الله وحده على كل شيء قدير .

صاح القاضي وتناثر الرذاذ من مكان سنتيه الاميتين - اشنقوه ! ..

- اشنقوني ، اتوسل اليكم لكن بالله ذكروني ما اصل هذه القضية وما هي البداية؟؟

المسبحة



سمعت طرقاً على الباب ، رفعت رأسي عن صحن الأرز واحسست ان عنقي يؤلمني اردت ان اتركه يتدلى على صدري .. آه ، كبرنا . متى؟ لست ادري .

وضعت صحن الأرز جانباً والطرق ملح متواصل . يا ذا الطارق الا تحسب ان في البيت عجوزاً تجالس اطياف الزوال وتسابق « شمس القبور » وهي تغرب ؟ نهضت وفتحت الباب ، دخلت ابنتي وبطنها تتقدمها . طوقتني . قبلتني . كيف نسيت ما حرمتها منه ؟ كيف سامحتني ؟ كيف ازالت آثار قسوتي من طيات عواطفها ودفاتر عمرها ؟ قد حرمتها في عصر تحررت صباياه حتى من مخالطتهن . يا رب اغفر لنا الذنوب ، فانا حين نقترفها لا نعلم انها كذلك أما انا .. فقد سامحت امي لاني صرت مثلها . اترى ابنتي قد صارت مثلي ومثلها ؟ ان تربية امي هي الاصالة والمحافظة على التقاليد والعادات ، فمن قال -ذكروني- انها اسطورة ومحافظة على الاموات ؟ ضمتني ابنتي بحب اخجلني فوضعت شفتي المكرمشتين على خدها محاولة ان اطبع قبلة لكنها كانت فقط لمسه . دخلت ابنتي وخلفها ضجيجها ، احفادي! بنتان وولد وجلست على جانبي الايمن تكلمني بحرارة وتدفق عن دنياها .. عن ضيق الرزق وتعب الحمل ورغبتها ورغبة زوجها في ذكر .فدعوت الله امامها ان يرزقها بالذكر ويديم عليها وعلى اسرتها الستر والعافية وسادت لحظة صمت فقامت هي لتغسل لي بعض فاكهة جلبتها لي . وصلت رائحة الفاكهة الى انفي فذكرتني بالشباب والحقول ومواسم العنب ذاكرتي هي الباقية .بها احيا وبدونها اموت . بها تشرق شمس صباحي وتغرب شمس الغروب . ولولاها لتوقف القلب ناسياً النبض ولولاها لوقفت في مكاني ، لأني اكون قد نسيت ان اخطو..

سمعت اصوات احفادي تعلو وتتداخل ، فالتفت الى حفيدتي . كانت احداهن قد اخذت صحن الارز المعدني وقالت الصغرى :

- هيا نقسم الأرز قسمين ونرى من تنقي كميتها افضل من الاخرى ..

- اليس في البيت لعبة افضل ؟ .

- اذهبي واطلبي من جدتي قصة اذاً .

- حتماً افضل من تنقية الارز ..

اقتربت مني واضعة يديها الصغيرتين حول خصرها الصغير وارتمت في حضني فأحسست كأنها

رجتني . تأملت وجهها الجميل الصغير وذكرني تقوس حاجبيها الفاحمين ، بامي يا سبحان الله حتى هاتين الغمارتين الخفيفتين في الخدين أما الأخرى فكانت تنقي الأرز وهي تدندن بهمة ومهارة اضحكتني .

ومدت حفيدتي يدها الى ذقني وادارت وجهي الى وجهها وهتفت :

- هيا يا جدتي ، اروي لي قصة .

قد سمعت هذه القصة تتردد في كياني ، لكني لم اروها بعد :

- كان يا ماكان بذرة صغيرة وحلوة مثلك ، تسلطت عليها اميرة الاشجار المستبدة وصارت تمص من البذرة الصغيرة ماءها وغذاءها ولا تترك لها ما تنمو عليه . كبرت البذرة الصغيرة حاقدة على اميرة الاشجار لما تفعله بها وبالبذور الاخرى . ولكن اميرة الاشجار حين شاخت وسقط تاجها من فوق رأسها وراحت تغيب في غيبوبة الموت لبرهة ثم تعود ، انقضت عليها البذرة الصغيرة وداست عنقها . اخذت منها لقب الاميرة والتاج والصولجان وتحولت هذه البذرة الصغيرة الى اميرة وتعملقت .. وتسلطت على البذور الاخرى التي كانت تتكاتف معها في كفاحها ، فاميرة الأشجار الراحلة التي بدأت بذرة صغيرة وصارت شجرة قوية تتفرع منها الجذور وتثمر الياقوت ، عندما شاخت بعد حياتها المتخمة بالجور والظلم وبعد ان لعنها تراب الارض ، فانها لم تسلم خصرها للفأس ولا ارتضت ان يصير جسدها شظايا تداس . فضعفت امام اكثر البذور حقداً عليها وكراهية لها ، فاسلمت لها عروق بقائها ، متخلية رغماً عنها عن سلطتها لاشد البذور رفضا لأي سلطان . لكن البذرة ما ان تذوق السلطة وترى التاج والصولجان وتتلذذ بالأمر والنهي حتى تصير نسخة وخليفة للشجرة الراحلة ، ولكن في قمة الجمال والشباب ، فيعمى بصيرتها السرور وتمتد جذورها وتتطاول على البذور الصغيرة الضعيفة وينسيها الغرور انها قبل دقيقة واحدة كانت احدى البذور الداعية على أميرة الاشجار بالفناء ، كل الاشياء يا صغيرتي تنسي . تحيا لتنسى . تشفق على من نسيه النسيان

النسيان جعل ادفأ الناس كالحديد في الجليد . قد جرف سيل النسيان حتى الورود البرية وريش الطيور المغردة والقلوب المحبة . قد جرف امام اعين الجائعين فتات الخبز والأمل ..

وتدريجياً شعرت ان مكان حفيدتي في حضني صار بارداً . وفوجئت بانها قد غادرته وراحت تلعب وتحاول بقبضة يدها ان تمسك بشعاع الشمس الذي دخل البيت من كسر جانبي في زجاج

النافذة . وعدت بظهري فاسندته الى الجدار .. بارد فاوصل برودته الى مفاصلي . وتذكرت ما كنت ارويه لحفيدتي . شعرت ان تلك الافكار كانت أشواك مسنونة تنثرها رياح هوجاء داخل مكعب ضيق هو عقلي العجوز انها افكار لا اهمية لها ، بعد ان فات الاوان ولم يعد في صدري قلب رحب ولا في عمري افق عريض يتسع لتنفيذ ما اكتشفت اثناء الرحلة انه ناجح ..

هرمت الآن .. اتسامر مع الدهر والعب مع الموت واداعب الاجل مداعبة خفية . ارى من نافذتي العصافير تتقافز من غصن الى آخر ولكن لم يعد سمعي قادراً على التقاط تغريدها . في الليل ارى القمر في السماء ، صار الآن بحجم بؤبؤ عين وفي شبابي كان في سمائنا ما سمي آنذاك بالنجوم اما اليوم فالسماء كالحبر والقمر كخرزة لؤلؤ عتيق ..

الآن .. بعدما اصبحت الشيخوخة لا تجرح كبريائي .. الآن .. بعدما استنفذت انفاسي وانا اصد الباب في وجهها ، قد تقوقعت بجوار الباب المفتوح على مصراعيه ، تاركة كل شيء يدخل حتى القطط والمعلبات الفارغة التي جرفتها الريح ..

الآن .. بعدما صارت الشيخوخة واقعاً صريحاً .. الآن فقط .. ارتحت . تناولت صحن الارز وعلى بعد من انفي صرت اصطاد الحبوب التالفة وارميها . يثير شجني صوت الارز وهو يُنقل من جهة لاخرى في الصحن . قد كنت الوم امي دون ان اصارحها في أي مرة . ولا تجرأت ان اعاتبها جهراً اما الثورة فقد كانت حلم اليقظة الذي عندما اعود منه الى الواقع ارى الحلم بعيداً يفر بعيداً في عالم الخيال . يخرج لي لسانه كأنه يثير ويستفز حسدي لحريته ولهوه ودنياه .. كأننا من المجاملات نكون ما سيحطمنا في احد الايام .. ننظم قوانين لتنظمنا لكنها تكنسنا لتبقى .. كأننا حين نحب نختار قيدنا والسجان ..

وجاءت ابنتي .. جلسنا نأكل الفاكهة في صمت . بعدها جمعت ابنائها من خلف المقاعد وتحت الطاولة وودعتني وخرجت . وابتعد الضجيج . تركتني حيث انا انصت الى ازيز الصمت الثقيل ..

أنا لم اعترض يوماً على امي لأنها كانت تمارس في وجهي صمت الاصنام لم اعترض لأنها اسكنتني خيمه نصبتها فوق طين متجلد .. لأنها كانت «أماً» والأم عندي كانت مخلوقا جبارا .

وكبرت وانا اعاملها كما عامل المجوس النار .. احببتها حبا عميقا صادقا رهيبا ، لكنه كان مشنوقا بالخشية . فاذا اردت ان اسألها خفت ردة فعلها وتراجعت ، يا اماه ماذا يصير لو

رفعت همسي حتى يصير صياحا ؟ ماذا يصير لو ابت اصابعي ان تترك طرف ثوبك الطويل ؟ هل تغفري لي هفوتي ؟ هل يشرق لي بعدها صباح ؟ وحلفت .. حلفت اني اذا صرت اما بعد اعجوبة ما ، فسوف افك خيوطي المتشابكة في عمر ابنتي وساجمع خرزات عقدي المبعثرات واضعه على جيدها اروع هدية . كانت الأمومة فكرة بعيدة وحزينة . لأني كنت بعد صبية اريد وبشدة أن احيا حياتي انا قبل ان تصير حياتي مصبوبة في قالب صغير من حياة ابنائي . قبل ان استحيل ذيلا يتأفف منه الجميع . قبل ان افشل في التفاهم مع ابنائي لجهلي لغتهم الجديدة المركبة لكنني لم انتبه الا وقد صرت عروساً . رأيت ذيل ثوبي الابيض وكرهت ان اصير مثله . ولكن يبدو ان القاعدة تقول ان من وضع نفسه في وجه التيار يجب ان يتوقع جرفة مع الاشياء في التيار ، صار الجنين في احشائي يتكون . اذا فرحت ذكرته وتنازلت له عن معظم فرحتي . واذا حزنت القيت بحزني في بطن اقرب خزانة حتى لا اشوه صغيري وهو لم يلق بعد وجه الكون الحزين ..

وتمنيت من الله ودعوته كثيراً ان تكون بكري انثى . وجلست اتخيل كيف ساحررها دار برأسي الهوس واقسمت ان لن اضفر شعرها لأن الضفائر قيود . ولكن ما ان رأت ابنتي النور وبدأت تكبر حتى سيطرت علي حالة مرضية رفضتها ، حاولت تجاهلها ثم حاولت محاربتها . ورقدت في الفراش منهكة من مصارعتها كانت هذه الحالة هي حرمان ابنتي من كل شيء تقريباً لشدة حبي لها . وفي نهاية المطاف استسلمت لهذه الحالة وغرقت في احضانها . كنت اسأل نفسي وترد نفسي السؤال إلي . هل كانت كل قسوة امي وصرامتها ، حباً مثل حبي لابنتي ؟؟ كأني بهذا السؤال الملح لنفسي اني سأسلك نفس اسلوب امي في التربية وبدأت اختلق الاعذار ، ودون ان الحظ متى وكيف صرت نسخة من امي ..

يا للذهول يا للذهول .. امارس صمت الاصنام . ونظرتي احد من شفاه السيف من قال ان أي منكم افضل ممن ينتقده ؟ فقط لا اني لم اكن قادرة على سطوة امي فقد انتقدتها ولكن لما صارت السطوة في متناول يدي سرعان ما تناولتها ..

يا سنوات اعلمي ، ان الاجيال «مسبحة» كل حبة مثل اختها . والا فمن يصدق اننا في هذا العصر وابنتي صارت اما ولا زالت مثلي ومثل جدتها لا تجيد الا تنقية الأرز وبناتها سيكونن مثلها ،،

وسكبت الأرز على البلاط واخذت باصبعي ارسم الدوائر وامحيها والمثلثات وامحيها ..
ان من عانى من ظلم ما وكبر وشب يرفضه ، حين يكون قادراً على اسقاط هذا الظلم فانه لا يسقطه ؛ حين يكون قادراً على اسقاطه من اعلى قمة شاهقة فانه لا يسقطه .
حين يكون قادرا على عصره في قبضته فانه لا يعصره . حين يكون قادرا على حفر قبر ودفنه فانه لا يدفنه . يا للعجب ، ما للناس صارت هكذا تنسى وتتبدل ؟ يا للعجب بل هو يستضيف الظلم في قلبه ويربت على كتفه ..
هذا الظلم قد انهك الكون قد انهكه . والكون ينطح الجبال ، فلا يجني الا تفتيت قرونه .. فيلملم كسوره وعجزه وعاهاته وقصوره ..
هذا الظلم الذي تلوى الكون من السنته قد امسى يجري في دمائه ..
أما انا .. فما اعتقدت ان الليالي والاعوام والتربية قد جعلت العبد الذي يبغض همومه يألفها في نهاية المشوار والعبد الذي ثار على حمله الثقيل قد صار يعشق حمل الاثقال .والعبد الذي اخفى جراحه الابدية قد حن لها حين زالت والعبد الذي تمرد على الراعي ورفض طعام الحمير قد بات لا يشبع الا بالبرسيم والشعير . احقا مثل كل الاشياء التي تتوفى توفت العزيمة ؟ رحمة الله عليها ! حقا صار الانسان هو هذا المخلوق المتآكل المتهالك المستهلك مثل الورقة التاريخية الشامخة حين تقضمها الجرذان وتتلف فطرتها فئران التجارب . والعبد وقد صار هذه الورقة التي لا سطور لها ولا قوام ، لا يهفو للتجدد والبياض الناصع وللتراقص بين شذا النسمات . قد صار العبد يتذكر طفولته المشحونة بالرفض والطموح كمن يتذكر عابر سبيل صادفه في احدى جهات الارض ..

الضيفة



واقع مجنون ، لا أدري كيف سرت اليه وصرت فيه ، كيف سعى الي وادركني وطوقني ، ولكن ! لكن في رأسي ورشة ، لا يفارق مسمعي ضجيج الآلات . فعلا الميزان الصابر تأرجح . كادت الكفة المجنونة ان تهوي من فرط ثقلها . شقت العدالة صدر ثوبها ... طرقت كل مؤسسات القانون وكل باب حق أو حكمة . زرت كل اصحاب الاحكام العادلة ، شحذت أيادي العون ، اطواق النجاة . فمضى كل يرعى رعيته . باختصار ضاع حقي وضاع طريق استرداده. لا أريد أن اسمع أي لوم على ما سافعل ! ويا من تنوون الاعتراض ، الامل ، ان كان عندكم أمل ، افضل ! لقد استجديت ولا تقولوا إني لم استجد وبخلتم بالدواء . فلماذا تعترضون اذا فتشت عنه في طيات الدجل أو تلابيب التنجيم ؟ عندما يتعلق الغريق بقشة لا يلام لأنه تعلق بأمل عقيم . لا اريد ان اسمع انكم تكلمتم عني بالنقد أو الاعتراض انا المحمومة والهذيان في حواسي ... نتيجة لشحكم ، وهاكم الاعراض ..

مشيت في خطوات ناجحة ولها مستقبل لو ، لو كنت فيها ممثلة امام مكتشفي وطلب مني تأدية دور انسانة تترنح . هذا المكان؟ لم هو منسي وكأنه لا ينتمي الى العصر . عصر ابناء آدم هناك .. ها هي اكوام القمامة هنا والرماد هناك . ترى هل يعقل ان يكون في إحدى هذه الاكوام جوهرة أو ماسه أو ...

وهذه الكلاب المتنفخة بصحة واهمه ، هل تدري ان ليس في ورمها أي صحة ؟ اكواخ قليلة يسكنها بشر كيف حدث واحتمل بشر مثل هذا المكان ؟ لكن ، لعله القضاء والقدر ... مثل الذي يسحب خطواتي ويجذبها ويصفق لها ؟ انا ، انا اقصد منجمة ؟! وليس للتسلية ولا للسخرية منها ، ان هذا هو قمة السخرية . امعقول ان الايام التي لم تأت بعد ، تحمل عند قدومها كل هذا السوء ؟ اهكذا تفعل ، أهكذا تتبدل ، وايامنا الماضية تشيخ لانها قد عرفت ما هو اجمل . امعقول ان يحكم الدنيا ويسودها حفنة من الافراد . الاول لص والثاني قاتل والثالث كافر والرابع معدوم الضمير والبقية اقربائهم ..

أما المنجمة ، فاني اشعر اني سارتاح لهذيانها . سأسب جهرا كل العصابة ، وقبل ان انصرف سوف انزع عن وجهها القناع واعلمها انها بدورها اكبر نصابه . اريد ان اكسر بقبضتي حلقتهم الملعونة .

لن أسمح لها ان تقرأ كفي أو فنجاني ولا ان تفسر خفايا الاصداف ... ولكن ساتركها تقرأ افكاري ، تحلل قطرة دم ، تكتشف في اعماقي الشمعة وتكنس ملوحة الانهزام من كل دمعة ، انا لا ازورها لتفك حبالي المتشابكة ولا لتجمع خرزات العقد المبعثرات ... لكني ازورها لانها لا تعيش في دنيانا ، ولها دنياها ... قد تصدق ، قد تصدق ما اقوله . لكني ، لن اسمح لها هي الاخرى ان تهشمني كما تهشم البهارات ... كما يدق البخور ليزداد الدخان ولتتعسر الرؤية وتسود اللوثة و .... وسارهف سمعي ، حتى اسمع مواء القطط خارج كوخها وخطوات الكلاب على الارض . وسأسمع الاصابع وهي توقف جهاز التسجيل وتضع الشريط على الجهة الثانية ويستمر التسجيل .... وسأتكلم عن الصباح والغروب ..

ووصلت عند بابها .... امامه قمامة . معلبات فارغة وبقايا مركبات . مسكينة ليس لها من هذا الا مخلفاته . في ذهني صورة معينة للمنجمات . اظنها في اذهاننا جميعاً . الوجه العجوز المتجعد ، الفم المحروم من الاسنان ، شعر فوضوي وحول المعصم اساور وحول الاصابع العشر . خواتم . رداء مهلهل ...

لكن من فتحت لي شابة في اواخر الشباب . تأملتها باعجاب ودهشة نادرا ما يوقظهما اي كائن من قبرهما . منجمة جميلة ، اجمل من اشياء كثيرة ... كانت ترتدي ثوبا اسود وعلى صدرها الاسمر عقد حباته فضية ، شعرها مقسوم في ضفيرتين غليظتين وجبهتها معصوبة بعصاب فضي . وكأن حياتها صداعا ابدي ... عيناها واسعتان وفاحمتان وابتسامتها صادقة ومألوفة لكن اظافرها طويلة و ... ومعقوفة .. أجلستني على الارض فوق سجادة الوانها كثيرة ومؤذية للنظر ولا زلت اذكر نقوشها .. جلست المنجمة امامي وبيننا كفوف خشبية مستديرة يتصاعد منها البخور ..

سألتني عن مرادي ، فاجبتها : (لي بيت له اربعة جدران ككوخك الحميم هذا ، سقفه كان الامان ، لكني خرجت يوما وعدت لاجد فيه العناكب والاغراب ، سميته احتلال ! ووجدت اصدقائي ينصحونني الا احارب ، ان اتفيأ الارصفة أو انزوي في شقوق الجدران ، حقنوني بالوهن . قالوا جربي ظل شجرة ، فالحياة عندهم نجاحنا أو فشلنا في التجارب . اما انا ، فلم استطع ان انسى انني في الاصل لي بيت . لم استطع ان اطيع ، فذاك البيت بيتي وداخله يكبر «صغيري» . لكني لم أسكت ايتها المنجمة ، قصدت كل رسمي وشرعي . لجأت الى كل

رحيم وصاحب صدر رحيب . توسلت كل قوى قادرة على البطش ليسترد لي حقي بالقوة ... لكن !! لكن الكل تخلى . لا ادري لماذا ايتها المنجمة ، فهل انت تعرفين ؟)

ونظرت الى المنجمة ، الى سواد عينيها ، الى الهالة المتعبة تحت عينيها الجميلتين ، وقلت لها : (اريدك ان تسمعيني فقد صرت آخر الجهات في الافق . لا تطلبي ايضاح او تفسير . عندما افرغ من شكواي سارى ان كنت ساسمع ردك ام لا !) وابتسمت لي المنجمة ابتسامة الترحيب والقبول وعدت اقول : (بعد ان احتل الاغراب بيتي ، وجدتني اتعلم ان التشرد يذاق وان مذاقه مر اعتزمت العودة الى بيتي ، عقدت النية لنسيان قهري . غسلت عيني من دموعها ، غسلت جوفي من طعم المر والحامض ، بمخالبي انتزعت من صدري قطعة صغيرة من الفحم ، شيئا احرقه الندم لكني ملأت ارادتي حماسا وسكبت في النظرة ضوء . التعبير . باختصار اعدت البناء . اتمنى ان اكون في رايك عظيمة ، انا وكل من رفض تضييق الاعداء لصدره ولامنه وحتى لياقة قميصه . أيتها المنجمة ، ها انا شمعة تحترق لتهب صغيرها ما يضيء طريق اللقاء . وضلوعي صارت عونا لنبات متسلق يزهر في اعماقي .... لينمو ويصير حبال ويدلني الى طريق اللقاء . لكن ! لكن يا سادتي يا من طلبت منكم العون . الحياة ليست صحراء كما تحاولون تصويرها ولا هي رحلة عطش وملوحة . الرؤية امامي على زورها واضحة فلا تنشروا الضباب والغبار .. انا رغم هذا رفضت توسيخ سمعي بفواضل احقادكم .

كلمة لم اكن اعرف لها معنى ، حتى وجدتها تفسير لا بديل له . ايتها المنجمة ، ان اصواتهم «عين» يمين تغمز لي غمزة الربا والرهان ، على من الرهان ؟ فلست خفاشا تقتلني الشمس ولا انا ريشة في مهب الريح رغم هذا الحصار ايتها المنجمة الا اني صفيت خطوتي من حسرتها على يقظتها المتأخرة والصحوة المتأخرة .

تتوجت بايماني بالتعويض . فالحياة أيتها المنجمة حياتنا وحياتك ليست غابة واتمنى الا ... تكون . لي منها امنيتي باستقبال صغيري لي عند الباب ، وقبل وتهاني .... لا يهمني اذا نغصت عودتي مشاريع الكل .. لا يهمني اذا دمر اعدائي مشاريعهم بنفس الغل . ولكن ! لكن ايتها المنجمة سروري بالخيال خُدش بسهم التنغيص . ذلك الكدر الخفي المكار مكر الذئب . اراه يزحف حولي ولا اصيب في اصطياده . رهيب ايتها المنجمة ... اراه يفترس احلى غزالاتي ويترك آثاره على ريش امير طواويسي . أيتها المنجمة ، بيتي وصغيري كالقمر ، لا

يكتمل حسنه لانه ابدا لا يطال)

وذرت المنجمة البخور في الكفوف الخشبية فزاد الدخان وسعلت وتثاءبت‌هي . هل كانت بالامس اميرة مدللة ، لها مواعيد نوم؟؟ لا تؤجلها في البال هواجس قلقة أو ألم احلام مستحيلة . جائز ، جائز جدا وعدت لاقول : (لا ادري كيف دقت كل طبول البلاد في اذني كل ما اعرفه اني لم اعد في بيتي . هل اذنبت لاني خرجت ؟ لم اخرج للجهاد او للشهادة ، خرجت لاشتري اتفه ما يواظب الناس على شرائه . وعدت لاجد على جدران بيتي صور اغراب بدلا من صور صغيري وصوري ، وجدت صغيري بين ايديهم .... احسست اسناني تتساقط ! بكيت عليه ... فقد صار بين ايديهم . اسمعهم يكلمونه .. يقول لهم يا سادتي وهو سيدهم . اني احترق شوقا اليه ... احتراق جلد بشري تحت مكواة ساخنة . صغيري ايتها المنجمة ، اجمل من مشى على الارض واحلاهم واظرفهم واتعسهم يا منجمة واشقاهم .

جرحي هو المتحرك . هل لك اطفال ؟ هل تشعرين بما اشعر ؟ بل كيف تشعر اي أم بما اشعر وليس لاي منهن ابن كابني لا تتعجبي ، فالاطفال صفحة بيضاء هم ملائكة . لقد اعطاني وهو بعد في احشائي الشعور باني محارة .... وانجبت لؤلؤتي في الظلام ، في قاع الليل . هكذا شاءت لحظة الميلاد .. ولم افهم لما استمر صغيري يكبر في الظلام ويعيش (وسهرت افكر ؟؟ هل يتخيل وجه امه ؟) عاش اعمى ، كم لعنت عتمة المحارة .. وكم سألت المارة ، يا ناس في الشوارع ما شأن هذا بذاك ؟ ايتها المنجمة لو تعرفين كم دق جبينه اللين بالجدار وهو يحبو .. لقلتي معي كم هي خبيثة ومتكبرة الجدران ؟! .. كم ضمدت وبكيت وجمدت قلب الام في قلبي وعلمت .. حتى ضاق الحنان من حناني . تركت صغيري وهو يمشي وهذه آخر اخباره عندي ..

وهزت المنجمة رأسها وتأرجحت تحت اذنيها الاقراط الفضية المستديرة ، وصمت حتى استقرتا مرة اخرى .. تأملت القطرة التي تجمعت في نظرتها .. كدت اطلب منها ان تبكي ان شاءت ، بودي ان اقابل من تبكيه قصتي مرة وعدت اقول : (ايتها المنجمة انا طبعا لم اسكت .. سألت كل مهيب ووقور .. سألت الغروب . انتظرته على الشاطىء . تأملت الشمس الحانية وهي تغطس في حد البحر البعيد ، استوقفته تفاءلت به انا لا اعده وداع أو كآبة .. انه انتهاء طبيعي ليوم مضى . لكن ! لكن تخيلي واشتطي في الخيال حتى تصيرين واسعة الخيال ،

وقولي لي هل وصلت الى تخيل الغروب بكل هيبته ووقاره ينفث إلى انفاسه الناطقة نغص سعادتي الوليدة بلقاءه . صوته ايتها المنجمة ، صوت كل الرجال والشيوخ مجتمعة في صوت واحد آت من بعيد. قال لي الغروب - هناك اذا عدت تنامين بلا سقف ، قلت له كفاني الجدار .. قال - بيتك بعد ان تنفس فيه الاعداء صار من ورق وهم يا مسكينة يحترفون الحرق ولن تنقذك الدنيا برجال اطفاء ولا افقك الشحيح سيهبك قطرة ماء :- ايتها المنجمة ، تخيلي ؟ الغروب يتجنى علي وانا امامه جناح فراشة فماذا نابه عند تفتيته ؟ لكني تجرأت وشكرت امامه الصباح ، اعلنت جهرا ان قافلة الامل غيرت مسارها في اتجاه الشروق .. وهل الصباح بضياءه وعطر نسماته . سألته والخيبة انا ، ماذا يوجد اذاً ؟ اجاب كأنه يقرأ من قائمة طويلة:

يوجد احقاد مشروعة وهواجس علمية واكوام من الحسد وشر الظنون ، يوجد نار عمياء تعاقبك حتى في نظرات العيون !) ايتها المنجمة ، تخيلي؟ وصمت كأنني افسح لها المجال لتتخيل ، فداحة المؤامرة وفروعها . لكن بددت صمت اللحظة طرقات على الباب . التفت الى المنجمة وهمست : (من يزورك في هذا الوقت المتأخر ؟) اجابت والخوف عصفورة مأسورة بين العين والعين : (لا ادري؟) .. وابتسمت . اهي خائفة ؟ يا لها من نكتة مريرة . تخاف الطارق ولا تخاف عالمها .. ونهضت اخيرا المنجمة مسرعة لفتح الباب . زلقت الى قلب الكوخ قامة ملتفة بالسواد على كامل جسمها ، وقد تبلل السواد . بهدوء اقتربت القامة مني . وجهها مغطى بوشاح فجأة تهاوت عند قدمي . شهقت المنجمة وقفز الذهول من نظرتي المحملقة في القامة الملقاة . مددت يد متجمدة راعشة واوقفت «الضيفة» حتى استقامت . وجدتها في مثل طولي . شددت الوشاح عن وجهها وما ان رأيته حتى صعقني الذهول وخلت قلبي يسقط من فرط التشابه . سمعت المنجمة من شدة ذهولها تهذي بتعابير خرافية . من امامي ؟ فتاة في مثل سني . تنظر الى كأنها انا ، أو بعض مني . لها مثل مالي . عدد رموشها مثل عدد رموشي . لماذا تبتسم لي هكذا ؟ كأني أرى وجهي باسم . لكن اهي ابتسامة استهزاء ام تعال ؟. هربت من غرابة ابتسامتها بأن اخذتها من يدها وسحبتها خلفي لاكسر الاسوار الحديدية حول معصمها . ابتسمت لي وانا ادق القيد والعن الجبابرة والعبيد .. نظرتها وهج على وجهي . وبلا مقدمات ولا تعارف فتحت فمها وكلمتني ، شكت لي ، وكأني اعرفها وقالت : (انت لا تعرفين كم كنت كبش فداء لافكار وعلاقات اتفه من علاقة شعرك بهذا

الطوق) ومدت يدها واخذت طوقي .. اخذته ، كسرته . ومسحت عن جبهتها قطرات المطر بكمي .. وسألتني بتسلط اذا كنت ساتركها مرة اخرى أو مرارا لتكون كبش فداء ، لتسكن خيمة التسكع فاعلمتها انها انسانة ابنة مليون انسان واني ساحاسب على عنقها الذي وهبته مراراً قرباناً لأمل مر موعده وشعرت اني أُشفى .. ان قلبي يتحمم بالتسامح .. وان مشاعري تعود طيبة .. واني اغفر لكل الناس .. واعفو عن القسوة دون ان تطلب العفو .. وان بي رغبة لمغادرة الزنزانة .. اردت ان اسمع ضيفتي الحبيسة تتكلم . جلست على الارض بجوار المنجمة التي كانت تتثائب طلبت من ضيفتي حكاية ..

فابتسمت لي ووجهت لي وحدي حكايتها : (يا انتم ، انا فعلا احبكم لذا سابوح لكم بنصيحة اذا آمنتم بصدقها عشتم احرارا لا يتحكم في مساركم احد . يا انتم ، اذا ارتبطتم بانفسكم واعتدتم توجيهها فلا تتركوا الاوهام تتدخل بينكم فتتوه منكم انفسكم طويلا . اذا فعلتم واضعتموها ونسيتموها ، اعتدتم غيابها والفتوة حتى فضلتوه على وجودها أي والله وهي من تسافر اليكم والدنيا ظلام لتلتقط شذاكم وتعود به ليكون قوتا لها لكذا عام .. ستعرف انكم عشقتم لكيانكم ساكنا غريبا .

وانتم ما ان سمعتم بنبأ محاولاتها للعودة اليكم ، لتكون الكتف والعصا ، حتى تتنفس الاوهام وتلوث عقولكم . فتهرعون الى الميناء تستوقفون العائدة في انفعال ، يشبه المنع ، يا حرام لا تتركوا لها فرصة لرد التنهيدة او للسؤال . تخبرونها بالرمز واللهجة الخفية انها لم يعد لها مكان ستشعر بعدم الترحيب وما اسهل الشعور . لكن من يحجب بيديه بهاء بدر البدور وهو يهل ؟ ويا اصدقاء لا استئذان في العودة الى الحق ، لذا عدت) ..

ونظرت الى الضيفة ... هذا الوقود الذي تجدد ، مصدره كلامها . نهضت مستعدة للرحيل وضياء شديد ينيرني وابتسمت قائلة: (أيتها المنجمة ، ما رأيك في كل ما صار ؟) فأجابت والنعاس يحكمها : (حظك سعيد ، عمرك مديد ، الفرح امامك والسعد خادمك!) ماذا ؟ ألا يوجد في الكون ما يبدل هذا الدجل . ورفعت غطاها ... وخرجت وهي نائمة ..

هل الصباح وركضت الى بيتي ركضا . طرقت الباب بقبضتي . دقات قلبي اعلى من الطرق . سمعت خطوات تقترب . تحكمت بي حالة ارتعاش . اقتربت الخطوات خلف الباب . تلاحقت انفاسي ، كأني سالتقي بوجهي بعد ان اشيخ فتح الباب امامي ولم اجد امامي احد . لكني

رأيت قامة صغيرة . نظرت الى الاسفل فوجدته صغيري الحبيب . بدون تدبير تهاويت على ركبتاي حتى صرت في طوله . اشبعت بصري المشتاق بعينيه الصافيتين ، اسنانه اللبنية والشعر المفروق من جهة . ضممته بشدة الى صدري . كأني احطم ضلوعي بضلوعه . ولكنه صاح صيحة ذعر وفر من عناقي وهرب ! لعلي تغيرت لعله كبر . لكن اين ذهب ؟ نهضت الاحقه ، ولذهولي لاحظت انه يدخل من غرفة ويخرج من الاخرى بسرعة ووعي من يبصر . جمدتني المفاجأة فتسمرت في مكاني . عرفت صغيري وعرفني وهو لا يبصر ، والان لا ادري ماذا افعل . طلت الغريبة عند الباب . احد الوجوه.

ركض صغيري وطوق ساقها بذراعيه كأنه يحتمي بها . نظرت اليه والسعادة تخرسني . اخيرا يا صغيري تبصر ؟ تبصر ؟ تبصر ؟ متى حدث هذا ؟ يا عيد عمري ، يا سعادة الارض انها ترجني كما يرج سائل في زجاجة . ولم اتمالك نفسي واطلقت زغرودة ، كم كانت مدوية افزعت صغيري فاختبأ خلف الغريبة . صار يطل من بين ساقيها المتباعدتين في قدرة وسلطة وجاه .. سألتني .. بصوت احسسته كرة تتدحرج الى فوق ممر رخامي .. سألتني ماذا اريد نظرت الى صغيري ، كفه الاصغر قميصه والجيب ، كل هذا لي ! لؤلؤتي ! وخنقتني العبرة انا من لم تخنقني الدموع ولا مرة . لكنني قد سمعت عن غيمة تكظم قهرها حتى تشوه صفاء السماء ، لكنها اذا انفجرت لا تكل من البكاء . وعادت تسألني ماذا أريد فاطرقت راسي وخرجت من بيتي واغلقت خلفي ... بابهم .

١٩٨٧

بيوت بلا ابواب



لا ، ليس لبيوت هذه البلدة ابواب ... ليس لها مداخل طبيعية للتعارف . تحول اهلها الى خفافيش يدخلونها في الظلام من أي ثغرة . تحولوا الى حيات تحتضر وهي تتسلل عبر الشقوق . تحولوا الى وطاويط تهجم على البيوت من نوافذها . تحولوا الى نجوم تسقط من السماء فوق السطوح وتظل هناك تخبو وتخبو حتى تنطفيء وتبكيها السماء فلا هي دخلت ولا عادت تتألق في الفضاء .

تحول اهل هذه البلدة الى اي شيء ... ذرة غبار رفعتها الريح الى زجاج النافذة فدخلت البيت تحولوا الى اشياء وتشيأوا ... مع انهم كانوا بشراً من اعظم وأعرق البشر . استحالوا اليوم اي شيء الا بشراً طبيعيين بدافع حاجاتهم الانسانية يطرقون باباً طبيعياً في بيت طبيعي في بلدة طبيعية . اشتاقوا لدخول البيوت من ابوابها ... تعبت الاجيال من الميلاد والموت في ذات البيت ... صارت الأشواق اوزاناً لم يعد احد يطيق ثقلها ... كلهم يريد ان يرفع جبهته للشمس ... ويحركون سواعدهم كالطيور المحلقة في الافق ... يشتاقون للصواب يشتاقون لمشاعرهم لكن قبل ان تشوه فطرتها قيود المجتمع ... يشتاقون لأنفسهم ايام كانوا اطفالا فقط لانهم كانوا ايامها طبيعيين لا يعلمون من فنون اخفاء المشاعر اي فن ... ولا يعلمون وهم اطفال ان عالم الكبار الذي يتصيدون العمر ليصلوا اليه ما هو الا ... ما تعلمونه جيداً .

لكن بيوت هذه البلدة ليس لها ابواب ، فمن أين يدخلها الناس ؟ من أين يحفرون ؟ بماذا ينحتون ؟ ماذا يصبحون ؟ الى ماذا يتحولون ؟ وأي متاهات يصلون حـــــتى يدخلوا بيتاً من بابه .

ليس لبيوت هذه البلدة ابواب . فلماذا ايها المسكين تدور حول البيت ولم تدرس المكان وتفكر في محاولات الدخول ؟ انك تدور كأنك مأسور في زنزانة الم اقل لكم لا يوجد باب اساساً ؟ فهل ترضى وانت انسان ان تدخل من غير باب يفتح لك على مصراعيه بل واستقبال رائع ... وزهور تطير في الجو ثم تتبعثر عليك وانت تدخل . اجل .

وانت ايها الغريب كم انت غريب لانك تحاول ان تجد باباً ، صدق او امض دون ان تصدق لكن بيوت هذه البلدة ليس لها ابواب كل البيوت مغلقة وقلوب كل اصحابها موصدة . انظر ايها الغريب الى المدينة كما هي اليوم لكن لا يغرنك التغيير الحالي والعمران المتفتح فانها -

صدقني - كما كانت عندما لم تكن تضم في احضانها الرحيبة سوى بيت واحد كانت بيوتها من طين ولا زالت بيوتها من طين وعيناها الجميلتان مصابتان برمد لكنه ايضاً من طين .. ولا زالت مدينتنا سيئة الحظ تحتضر تحت وحل لزج لا فكاك منه معظمه من السنة الناس .

.. وإلى الآن .. لم يجرؤ احد على لمس الجرح لانه يؤلم حين تلمسه الاصابع ولا تجرأ احد على مسح عيني المدينة الحبيبة لانها اذا فتحت عينيها سيقهرها نور الفانوس ولا تجرأ احد على الاعتراف بانا تعبنا ... نعرف اننا قد حزنا كثيراً ولكن نتناسى اننا سنحزن جداً ما دام ليس لبيوت هذه البلدة ابواب ... وليس للقلوب ينابيع حب وتسامح ... اني اراها موصدة بقفل وشمع احمر وحتى اذا فتحت فهي معطلة تماماً بفعل عملية جراحية ارتكبها جزار يعاني من الصرع والعمى .

كانت الخالة تجلس وحولها بنات اختها المتوفية ... تحكي للبنات ان الابواب شرور لانها تفتح ... وتظل مفتوحة ... وقد تدخل قذارة وبالتالي تجلب الشرور . اجابتها احدى البنات :

- لكن الابواب هي الوسائل الطبيعية المشروعة لدخول اي بيت بشكل مقبول .

فقالت الخالة - من قال ذلك ؟ وما الداعي لدخول البيوت اساساً فليكتف كل مخلوق ببيته ولا يغادره .

- وكيف اذا نتعرف على بعضنا ؟ نحن نحيا سوية ولا بد ان نشعر انا فعلاً سوية .

- وهل يجلب التعارف سوى المشاكل ، اما الحياة فنحن سوية ولا مفر من هذا ... الا نشترك جميعا في اوقات الشروق والغروب ؟ يكفي هذا لنذكر اننا سوية .

- يا خالة لو كان للبيوت ابواب لدخل من نرحب بهم ولكان التعارف فاتحة خير لنبرأ من امراضنا المكبوتة وعللنا المدفونة . ان معرفة الناس سعد يا خالة .

- بل ان معرفة الناس ما هي الا تنازلا عن راحة البال وهدوء الخاطر و

ونهضت البنات من حول الخالة وكانت في يدها علبة كبريت تتأملها ، انتقلت البنات الى حجرة اخرى .

قالت احداهن : ليس فقط البيوت في هذه البلدة ليس لها ابواب .

اجابت الصغرى - اجل حتى البشر ليس لهم ابواب ، ليس لهم قلوب ، لا أعرف من أين اصل اليهم دون ان افقد احترامهم لي في طريقي اليهم ، لا يرحبون بضيف ولا جار ، لا يستقبلون

صديقاً او حبيباً او قريباً . يتحملون بعضهم على مضض ، الناس هنا مقفلون وموصدون .
- انني اسمع احتكاك القفل فوق الصدر الحديدي .
وضحكت البنات فجاءت الخالة على صوت ضحكهن وقالت وهي تحاول ان تبدو لطيفة :-
- لم تضحكن ؟
نهضت البنات وانفضت الحلقة ، فلم تثار اسئلة ليس لها رد ؟ لم تحدث اخطاء ليس لها إصلاح ؟ لم نسيء فهم بعضنا ؟ ولم امام نافذة المحال ننتظر الربيع عالمين انه الخريف ؟ لم نتبع العبث ؟ ولم نكد ونتعب لنصل الى هدف هو في الواقع ليس لنا ؟ . وعادت البنات واجتمعن في غرفة اخرى وقالت الصغرى : ان الجبال تصمد امام البراكين والأشجار لا تفنيها الامطار ... والزهور التي يقتلعها الاعصار تعود فتنبت والارض بعد الزلزال تعود فتلتئم وعباد الشمس مهما انحنى يعود ليلثم شعاع الشمس ، كل شيء يتجاوز خطبه ... ونحن ؟ .
في تلك الاثناء مر شاب عاد من غربة طويلة جداً ، كان يضع يديه في جيوبه ويركل حجراً امامه . مر ببيت البنات وخالتهن ووصل الى مسمعه حديثهن ، شدته كلمات الأخت الصغرى فاقترب من البيت والصق اذنه بالجدار بعد ذلك دخلت الخالة الغرفة وجلست مع البنات وهي تحيك شالاً صوفياً . تبدلت ملامح الخالة سرت فيها رقة وتسامح وتساءلت بصوت خجول :
- هل تحببنني يا بنات ؟
- اجل يا خالة ، فليطل الله في عمرك ويبقيك لنا في صحة وسعادة .
لم تجب الصغرى فسألتها الخالة - وانت ؟
- اذا كان الحب هو ان لا اتمنى لك الشر فانا لا اتمنى لك الشر يا خالة .
- تتمنين لي الخير اذاً ؟
- اراك كل يوم يا خالة ... وارى كل يوم ذاك المقعد وحوض الزهور هناك . سأحزن كثيراً اذا انكسر المقعد وصار بثلاث ارجل وسأبكي اذا ذبلت الزهور في ذلك الحوض وصمتت الخالة كأنها تفكر ثم تساءلت - ماذا تقصدين ؟
فرفعت البنت كتفها وقلبت شفتيها وتمتمت - لا ادري .
فنهضت الخالة وتركت الغرفة - نظرت البنات الى اختهن نظرة عتاب وتأنيب .. في تلك اللحظة شعر الشاب بحشرجة فسعل رغماً عنه خاف ان تكون البنات قد احسسن باقتراب

انسان غريب فزاد التصاقاً بالجدار . وفعلاً اطلت الصغرى ومدت عنقها وتلفتت يميناً ويساراً ثم عادت الى الداخل ورآها الشاب ثم سمع صوتاً يقول :

- لعلها خالتنا تسعل .

- لقد جاء السعال من الخارج .

- عموماً لم أر احداً .

- وهنا ابتعد الشاب عن البيت عاد يتمشى ويفكر ثم يتذكر وجه البنت التي اطلت من النافذة وجهها شديد البياض وعيناها كأنهما نبع من العسل المحاط باسوار الرموش السوداء وشفتاها صغيرتان ورديتان . كلماتها تدور في مسمعه وتختفي فيعيدها الصدى وتضخم في كيانه الحاح على معرفة هذه البنت بات الليل سهران . أنسته البنت مأساته التي كان يتسكع في الشوارع يفكر في مخرج لها . أنسته الصدام البشع وادخلته في افكار لها لون مختلف تماماً ، حاول ان يعرف ما الذي تحرك في صدره لأول مرة منذ ميلاده أهو القلب ؟ هدأ ليتعرف على مجاهل جديدة في نفسه . يتذوق طعماً فريداً لا يجد لسانه وصفاً له احس انه لو حكى لتلك البنت مشكلته فانها لن تحلها فحسب بل وستصغرها وتجعلها لا تساوي كل هذا المدى الذي وصل اليه . احس لو حكى لها مشكلته فانها سوف تسمعه وانها ستفهمه وستختار له الالفاظ المناسبة اذا ما تأتأ ولم يسعفه التعبير بالكلمة المطلوبة ، أخذ يفكر فيها حتى دخل في غيبوبة من الخيال أخذ يتخيل نفسه وقد شاب شعره وجلس في ركن يهذي كما يهذي المسنون وكان هذيانه عنها وهي أمامه ايضاً مسنة لكنه لن يمل حديثها ولن يعتاد ضياء وجهها وسيظل ابداً مأخوذاً بها . سيظل عسل عينها متدفقاً حتى ولو احاطت بعينها التجاعيد . هجع قلبه من ثقل الأفكار . فجأة نهض ودون ادراك راح يسير في اتجاه بيتها ، قلبه الذي تحرك اليوم يجعله مسيراً بقوة معتوهة ، ها هو يساير كلاباً متشردة ويمشي تحت ضوء القمر ويبحث عن وجه البنت داخل كفه !! وصل بيتها وجلس امامه ولم يسأل نفسه لماذا اتى ؟ وفجأة اطلت هي ... ولم يصدق عينيه فرح رغم انه كان هذه الليلة يئن تحت اقدام مشكلته التي سحقته . اخذ يتأملها وهي لا تراه . كانت تتأمل القمر . لمح خصلات شعرها تتطاير وتلتحم بسواد الليل وتنظر الى وجه القمر وكأنه سيبوح لها بسر ، اخذ يتفحص وجهها كأنه يريد ان يحفظه كي يسترجعه حين تغيب ، انها ليست رائعة في رأي كل من يراها لكنه يشعر

ان في وجهها اكثر من جمال انها حلاوة روح وطيبة تطل من عينيها . كانت امام القمر وهو يقول انهما قمران كل منهما يحسد الآخر على حسنه ؟ آه .. ان هذا القلب الذي تحرك اليوم يجعل العقل مادة مشعة ومتطايرة ان هذا الذي يتحرك اليوم يربط العينين بعصابة تعمي من شدة بهائه ثم يدفع بمعصوب العينين الى متاهات لا مخرج منها . بهدوء انسحبت البنت وغاب القمر ثم سمع صوتاً لم يستطع ان يتأكد انه صوتها لكنه دخل قلبه. وسرى فيه فأحبه دون ان يتأكد من صاحبته كان الصوت يقول :

- (الآن الآن النهر جف / والقلب السخي قد استُنزف / مكان النهر صار صحراء / ظمآنة وجرداء / وقد تجاوزت همي / وزرت المكان وفي حضني .. ينابيع ماء / حاولت ان اعيد الرمق لعروق النهر / لكن عروقه قد صدعها القهر / والقلب اتعبه القلب / والحب شوهه فشل الحب) .

شرد الشاب يفكر وسكت الصوت . اخذ يفكر في طريقة تجعل البنت تحس بوجوده ومرت ليال وهو ينصت الى أحاديث البنات حتى صار يميز صوتها وما تقوله ويعرف آراءها ويتوقع ردودها كاد يقول انه صار يعرفها كان يراها كلما اطلت وفي احدى المرات رأى الخالة وقد كان يتشوق لرؤيتها، ملامح وجهها صارمة وحول عينيها تجاعيد لكن لا زال في وجهها بقايا حسن مضى . وصار لفت انتباه البنت اليه هو هاجسه الوحيد . حاول في المرات التي اطلت فيها من النافذة أن يسعل بشدة ويشهق كأنه يكاد يختنق . مرة مشى ثم تعثر وتأوه بصوت عال حاول مرة ان يدندن بصوت مسموع ، جرب ان يجمع في يده اوراقاً وما أن ظهرت حتى رماها في الفضاء وتطايرت والبنت كما هي لا يتحرك رمشها ، واذا كان الوقت ليلاً ظل وجهها في اتجاه القمر ولا يلفت نظرها اي شيء حتى شعر بنوع من الغيظ الغبي من القمر . في احدى المرات رفع صوته واخذ يصف القمر بابشع الصفات لكنها لم تلتفت اليه فقد ظل وجهها الحلو مسمراً في اتجاه القمر وكل تلك الطيبة التي تغرق كل من تنظر اليه بعينيها تنسكب كالشلالات فوق قرص القمر وحاجباها مرفوعان في ترقب وكأن القمر سينطق وسيقول لها ما احلاك .

وحين كاد اليأس يدمر روحه نصب خيمة على بعد مسافة قصيرة من النافذة واقام هناك فلا بد ان تراه الآن . أوه .. هذا الذي تحرك اليوم الى اي جنون يرميه ؟ ليته يصاب بالشلل . لم كل محاولاته تطير كريشة في مهب الريح ؟ انه يتخيل نفسه حتى لو حفر قاع البيت ليصل اليها

فانه يتخيلها وقد استحالت عصفورة صغيرة وحلقت في اتجاه السماء تخيل انه اذا وصل الى النافذة وكاد يدخل البيت فانه يراها وقد اغلقت النافذة واذا تخيل ان يحط فوق سقف بيتها فانه يراها وقد دفنت نفسها . ما الحل اذاً ؟ وقرر ان ينساها وأخذ يفك اطناب الخيمة وينزع المسامير ويفك الحبال ورفع الخيمة وكان وهو يلملم اشياءه يفكر في كل محاولاته التي فشلت وكأنها لقطات تتقافز امامه ، لقصة بطلها سيء الحظ ويستحق الشفقة وأخذ يغني ليشغل نفسه بغير خواطره الحزينة فوجد ان حشرجة صوته تذكره بها لانها حشرجة شجن اغمض عينيه كي لا يراها امامه لكنها كانت ساطعة بين العين والجفن . النسيان لا زال بعيداً في آخرالمشوار لكنه سيصل اليه ما دام يمشي ولا يقف . بدأ رحيله وخيمته فوق ظهره وفي تلك اللحظة اطلت البنت ونادته !!! فاستدار بعنف حتى اسقط الخيمة ووقف يحملق في وجهها غير مصدق .

قالت له :

حين رأيتك تكاد تختفي دون ان اعرف رداً على سؤالي قلت لنفسي هل اتركك تذهب معتقداً انك لم تنجح في لفت انتباهي وتذهب دون ان تترك اي اثر ام استوقفك واسألك السؤال الذي يلح علي ؟ وكأننا ايها الغريب في حرب تحد مريعة .. اخذت اسأل نفسي هل اكلمك وتفوز انت ام ان فوزي هو انسحابك ؟ لكن فاز الفضول وصار السؤال اقوى مني . ما كل ذاك الذي كنت تفعله ؟ لقد رأيت كل محاولاتك تنتهي بالاستشهاد لكني كنت استخدم عقلي ولم اشأ ان اظهر لك اني اراك لأن هذا كان سيجرني الى ما لا قدرة لي عليه . كنت اراك لكن يقود بصري اعمى ورغم اني لم استجب لكن كم وكم صفعتني كفوف العيب وكفوف الذي لا يصح والذي لا يجوز و ...

وصمتت عندما رأت ذهوله . صمتت وهو مذهول ذهولا مضحكاً فسألته - ما بك ؟

ولم يرد فقالت :

- لقد اردت حين تجاهلتك ان اجنب نفسي الشذوذ عن القاعدة واجنبك هذا ايضاً والتجاهل تيار جارف جداً ، اتعرف اني مرة قررت ان افتح بقبضة يدي فجوة في بيتنا لتكون باباً ؟

- ولم لم تفعلي ؟

- ارتخت قبضتي وخشيت ان يوصف بيتنا باشنع الصفات .

- من اذا سيغير هذا الوضع .

- ليس أنا .

- ليس انت ولكن انا ايضاً وغيرنا .

- وكيف نجتمع لنغير وضعاً نحن مفرقون ومشتتون بسببه ؟

- لا بد من خطوة .

- لست انا من سيخطوها .

- كنت اعرف عنك من خلال ما اسمعه منك انك اجرأ واقوى من هذا ؟

وتنهدت قائلة - اؤمن باشياء كثيرة رائعة وعظيمة واجيد التعبير عنها بأجمل وادق الكلمات لكن لا اطبق شيئاً منها .

- اذا كان كل ذاك التجاهل تمثيلاً .

وابتسم الشاب وكأنه اعجب بقدرتها على التمثيل فخفضت جبينها وقالت بصوت منخفض :

- ليس تمثيلاً بل تدبيراً وخلاصة تفكير . والآن ... قل لي ماذا كنت تريد مني ؟

- اعجبت بافكار وآراء البنت التي كنت اسمعها واردت ان احكي لها مشكلتي . لكني ما عدت اريد هذا .

- هل ارعبتك الى هذه الدرجة ؟

- ارعبني حرص البشر على الا يخدشوا القواعد حتى تلك الظالمة منها والجائرة والتي تقتلنا يومياً اذا كنا لا نجرؤ حتى على ان ننظر اليها بازدراء من اذاً سيرفع يده ويكسرها ؟ .

- يا عزيزي ... بودي لو انزل واقف امامك واسمعك تحكي مشكلتك بل ونحلها معاً ولكني لا اجرؤ . بودي ان تكون لهذه البيوت ابواب غير اني لا اجرؤ على ان اتذكر لي قلباً ... لم كل القصص حزينة ؟ اريد ان اسمع مشكلتك .

- وما الداعي ؟ .

- قد احلها .

- لا اعتقد انك حتى ستسمعينها .

- اذاً مصر انت ؟

- اجل

- اذاً امض حتى نموت ويأتي جيل آخر بعدنا بكثير .

- ولم نفشل وينجح هو ؟ بماذا يزيد عنا ؟

- يزيد عنا ... بانه ليس نحن لم يسقط كل هذه المرات ولم يشارف على الموت كل هذه المرات لم تنحن ظهورهم مثلنا وهم بعد شباب ، يزيد عنا بان ريقه لا يجف عندما يوشك على المطالبة بحقه في الاختيار .

- اذاً الامل في الجيل القادم

- اجل

- حسناً الى اللقاء اذن في ذلك الوقت !!!

قال الشاب ذلك وابتسم ثم ضحك لشدة غباء الوعد فضحكت هي ايضاً . سرعان ما تحولت الضحكة إلى قهقهة وقالت وهي وسط ضحكاتها :

في أي ساعة نلتقي على وجه الدقة ؟

فضحك هو .. وفجأة دوى صوت الخالة يسأل البنت - لمن تضحكين ؟

فاجابت وهي تسرع بالاختفاء - انه شحاذ يا خالة .

ووقف الشاب حيث كان . شحاذ ؟ سامحك الله ، وحمل الشاب خيمته وسار وكأنه خرج للتو من عملية جراحية . هذه البيوت ليس لها ابواب والناس لا تخرج من بيوتها ..

... تماماً كما ليس لاصحاب هذه البيوت قلوب ولا مشاعر تخرج من قلوبهم .

صنعاء

١٩٨٨


وماذا بعد؟

وقفت فوق هذا الرف طويلا .. طويلاً لم أكن فوقه زهرية تحتضن في قلبها المتشقق ورودا مبللة بالندى ، ولم أكن جامدة . لا لم أكن فوقه حمامة بيضاء مأسورة ما ان تلتقط عيناها الفاحمتان فجوة يتسرب منها وجه السماء حتى تفرد جناحيها وتفر من أسرها . ولم أكن على البقاء مجبرة ، لكني وقفت فوق هذا الرف لانه مكان سام ، فهل تصدقونني ؟ كنت انظر من مكاني العالي الى العالم الادنى كأني اقف فوق هضبة شاهقة واطل منها على واد حكته الوحوش وبصرخات الندم صار يموج ويموج ، جميعهم تركوا الرُّف ونزلوا . وهذه الليلة القمر جميل ولاحساسي الداخلي بريق . فمن يسهر معي .؟ ومن يربت على رأسي .؟ ومن يظل محدقاً في وجهي حتى انام .؟

أحيانا أرى في هذا العالم الادنى ما يجعلني اتمنى النزول فاتمنى لو كنت فراشة لادنو من هذا العالم اراه عن قرب لكني اعلم ان لا احد ممن نزل عاد مرة اخرى مهما اراد العودة . أعلم ان الاغلبية ظلت تتخبط في وحل العالم الادنى فلا هي تطيق الاستمرار ولا عاد الرُّف يفتح ابوابه لمن اتسخ . كنت أقول اني أتمنى ان اكون فراشة اقترب من هذا العالم لكني اعود واشفق على الفراشة من أن تشتعل بوهجه وتستحيل رمادا قبل ان تتفوه بسؤالها : انورهذا ام نار .؟

أجل أيتها الفراشة ليست كل الزهور لك وليس لكل اسئلتك أجوبة . وأحيانا أخرى أكثر أرى ما يجعلني أشيح بوجهي وازداد ثباتا في وقفتي فوق الرُّف . ومن قال ان كل ما هو فوق الرُّف منسي ومهمل . فكثيرا ما يكون محميا مصانا . فهل تصدقونني .؟

من هذا العالم الادنى ترمقني احيانا عيون اقرأ فيها المحبة ، تنصحني الا افعل ما فعلت هي ، الا اتعجل كي لا أندم كما ندمت هي ، عيون تقول لي اسعدي بما أنت فيه ، واحيانا اخرى اقبض على عيون متلبسة بجرم النظرة الحاقدة ، عيون تفترسها رغبة هستيرية في ان يعمى الكل ما دامت هي كفيفة ، ان يفنى الكون ما دامت قلوبها قد جرحت وان تتحول البشرية الى رماد ما دامت عواطفها لم تقدر عيون حاقدة تريد ان تبيع ذهب العواطف في صدور الكل بثمن التراب فقط لان عواطفها كانت رخيصة والف الف صوت يمزقه القهر يصيح: لماذا انا .؟

يا رفي . يا من أطل منك على هذا العالم ، اتألم على ضحاياه واتمنى لو يصل صوتي

اليهم . يا سكان العالم الادنى انا واحدة فقط لكني مسرورة فهل تشاركتم في تذوق طعم السرور .؟ هل تذكرون وجه البراءة اذا ما صادفتموها .؟ هل تشتاقون لراحة البال اذا ذكرتم بها .؟ والالتزام والاحترام والجدية الا زالت عملات تتداولونها في عصركم هذا .؟ واذا رميت لكم بفتات من الغفران والتسامح فهل تلتقطونها .؟ والحب اذا جعلتكم تتجرعونه هل تعدوني الا تتقيأونه .؟ اسأل وأسأل فلماذا لا يجيبون.؟

لماذا هم يا رفي لا يجيبون ؟ .. يارفي . كل ما حولي يضغط علي كي انزل لمجرد ان الجميع قد نزل فهل اخطيء في نزولي لمجرد ان الجميع قد اخطأ .؟ سأنزل يا سكان العالم الادنى . اعدكم اني سأفعل لكن لن انزل الا عندما ارى في عيونكم قبولا ولن انزل الا لهذا ، سأنزل ولي في الادنى عرش أميرة . تأملوا تاجي المتلألىءوبين خصلات شعري ستبرق نجوم . ثوبي سيكون اخضر بلون العشب وسنزينه بأغصان خضراء وورود حمراء حقيقية وسأخطو بينكم وكأني خميلة فاقتربوا مني فما نزلت لاشمت. وسلموا علي علكم تتطهرون بطهر العالم الذي وصلت للتو منه . حاولوا التقاط الوان قوس قزح من ابتسامتي علكم تتلونون بألوان فرح العالم الذي وصلت للتو منه عساها شفاهكم تتحرك ولو بجهد وبعد طول صدأ تستذكر شيئا اسمه الابتسام ، أدري ان كل هذا هراء لكن متعة الهراء ان لا عقلانية فيه .! اما أنت يا رفي فلا أدري كيف سأعاودك وانا من لم تشهد يوما وداع القلب للصدر ولا أنتم . يا رفي انطق قل لي ولا تخفي ما أنت .؟ صدقني ، سأحزن لفراقك . هل احزنك ذكر نزولي .؟ أرفع جبينك فأنا أرى الحزن يتقيح في المسام . والجرح . يؤلمني لمسه بالاصابع ، يؤلمني مداعبته بريشة يؤلمني الحديث عنه ويؤلمني حتى النظر اليه فكيف يكون جرح المسافات عند الوداع .؟ فاذا تواعدنا يا رفي رأيتك تخفي غصة وأبت إلا أن تفضح حزنك وتتورم بالدموع ، أتركني رغم كل شيء اشدو لك واشعل اصابعي شموعا . القى في ليلك نيازكي الصغيرة صدقني لم يمت احد حزنا اتركني امسح دموعك باصابعي بكمي واذا لم تجف دموعك سوف أؤرجحك وكلي امل ان ينتهي خيط دموعك أو حتى يخف وحتى أرى البسمة الخفيفة جدا والحلوة جدا تعلو شفتيك أثمن ما فيها انها أشرقت وسط الدموع كالشمس تتغلغل بين الغيوم لا بد أن تجف لا بد وإلا اذابتني العاطفة في حر التعبير .

وقفت فوق هذا الرف طويلا ، لكني قررت ان اتكلم مع سكان العالم الادنى .

اريد ان اعرف من هم وما الذي انزلهم .؟ تلفت حولي وكان أول ما وقع نظري عليه فتاة تقف ساندة ظهرها الى جدار وتشبك ذراعيها أسفل صدرها . تنظر الي في كبرياء وتعال فقلت لها:

- وقفت فوق هذا الرُّف طويلا ولم اتعب من الوقوف . لم أسند ظهري لارتاح ولم اتوسد يدي وغفوت فوق اي كتف .

لكنها لم ترد علي . رأيت جدار كبريائها الزجاجي يتشقق ثم يتهاوى في شظايا حادة . واختفى الجدار فزال كبرياؤها نظرت الى الركام قائلة لها : هكذا أفضل اليس كذلك .؟

ولم ترد ولم تهز رأسها ولا ابتسمت وكأن البسمة ستمزق خديها . ولكنها قالت لي في هدوء :

* (١) - استطردت في حديثي - عن آخر الخبر وموقفي يا سادتي - كالسنبلة اتراقص مع النسيم - والرياح وعودتي اليكم كالجراح - في وادي الصراخ والالم - عذرا لاني استصرخكم - عذرا لكونكم بشر - وكوني الوحيدة بينكم ومن دونكم اقتحمت عليكم الحديث - هل طال الحديث يا كرام .؟ - حسبي فهذا مستهل الكلام - ففي آخر المساء لطخت سمعة الزمن - ورفضت عتمة النهار وبسمة الغسق - فأضاعني الليل في وهج السمر - وعندما بنيت بيوتاً ورسمت لها البشر - دب في عروقي لهفة للنهار وصيحة القدر - وانحل ايقاعي كالرماد يتطاير . وتنفست - لون الربيع بلا شجر - ومدينتي يا سادتي طال وصولي اليها - وطال السفر - وانتظرت ان يهبط الامل على البلاد - فاتكأت تعبا على الجبال - كالليل يشكو الالم لفجر النهار - فعشت حياتي تأملا وعشتها انتظار - فهكذا انا . فهل من خطأ يا كرام .؟ .

تنهدت فعرفت انها قد اكملت قولها . وعدت اقول : وقفت فوق هذا الر .. وإذا بها تهتف بي في غضب : كفي عن تكرار هذا . كلنا وقفنا فأي عظمة تتوهمينها في هذا .؟ أفزعتني ، أسكتتني ، رأيتها تقف بين الوحل وتغطي قدميها الصغيرتين الطحالب ، نظرت الى نظرة حادة وتغير لونها وكأنها تحتضر وقالت وانفاسها تتلاحق - لعلك تدعين العظمة وأنت في الواقع جبانة لعلك تخافين الفشل وتخشين الزلل ولذا تظلين واقفة من شدة الذعر ، لا شك انك تخشين ان يحدث لك ما حدث لغيرك بلى فأنت لست معصومة عن الخطأ وحتى تدركين هذا سينحني ظهرك وانت هناك .

- يا عزيزتي المح في حديثك سهمين : الحقد والحسد وهما مهما رمى بهما الرامي الى ابعد ابعد الحدود فانهما وان جابا الدنيا الا انهما لا يستقران وبثبات الا في صدر راميهما .

- لا تعتقدي ان ما تقولينه هو جوهر الحقيقة لأن الحقيقة تختلف وتتعدد باختلاف وتعدد البشر . ولا تكوني على كل هذه الثقة بمعرفتك لبواطن الشر . فحين نزلت كنت مقتنعة اني احسنت الاختيار . فمن أنت لتحكمي على هذا الاختيار .؟

ماذا تعرفين عني .؟ ماذا تعرفين عني وانا ابحث عن النجاح في كل مكان ، حتى بين أغصان الشجر وفي ضياء القمر ، لكن ماذا أفعل وقد نزلت لأجد نفسي امام «وجود» آخر غير الذي كان في توقعي . وكيف أعود وأنت تعرفين ان الرُف لا يقبل من نزل .؟ كيف انزل وانت تعرفين ان الرُف يعتبر الفشل دنس لا يمكن تجاوزه كيف اشحذ منه فرصة اخرى .؟ هل أعاقب لان حظي جاء اليَّ اعرجا يترنح .؟ ماذا كان تصرفك لو انك مكاني .؟ هل تصنعين من كفيك جدارا يرد عنك سيول سوء الحظ الجارفة .؟

قالت هذا وهي تمد كفيها امامها وتضحك ضحكاً غبياً وحزيناً . غبي لانه بلا معنى وحزين لأنه تجرد من معناه . لم احاول ان أناديها لكن : اذا كان الكل يعلق فشله على سوء الحظ فمتى يكون الانسان مسئولاً عن فشله .؟ سوء الحظ ، أو الظروف أو القدر . وإذا كان كل انسان يعتبر عثرته هي مأساة بشرية بأسرها فكيف اذاً يتجاوز اي عثرة .؟ واذا كان الكل يسرد تفاصيل فشله هو فمن القاضي .. ومن يرحم ويستمع .؟

التفت الى الجهة الاخرى ، الجهة الثانية ، فوجدت قامة خشبية نحيلة واقفة في حقل ، تفرد ساعديها في الجهتين وترتدي قبعة ، تتلاعب الرياح بثوبها المهلهل ، وبالاكمام الممزقة وتميل مع الريح خصلات شعر طويل وله بريق ذكرني بغروب الشمس . على كتفها تقف عصفورتان تتباحثان في سؤال جوابه في السماء ، هل تفوز الشمس أم الغيوم ؟ لا هذه ولا تلك أيتها العصافير بل تفوز السماء لانها الباقية وسألت خيال الحقل - هل أنت خيال الحقل ؟

فاذا بها تتحرك وتثني ساعدها وطارت العصفورتان في هلع التفتت الفتاة اليَّ وشلتني المفاجأة فانا اعرفها ، أعرفها واذكرها اهذه من نزلت أمامي دون ان تعانقني ولا تصافحني ولا حتى ودعتني من شدة فرحتها ؟ اهذه كانت اجمل من رأيت ؟ فقلت لها بصوت اضعفه الدهش:

– أنت ؟ انا لا اصدق تغيرت كثيراً يا صديقتي . أين ضحكتك الرنانة وصوتك المميز ، كنت احب نطقك لحرفي السين والصاد وكان نطقك لحرف الهاء وكأنه نفس عطر . فاذا بها تنفجر بالبكاء واستغربت لشدة الشبه بينها وبين خيال الحقل ذكرت قامتها وتورد خديها وبريق عينيها وضحكتها التي كان لها رنين ضحكة الاطفال ووجدتني اتساءل :– من فعل بك هذا ؟ الناس :– الناس الذين احبهم ؟

اجابتني – تحبينهم ؟ انزلي واعرفيهم اولا ثم اريني كيف تحتفظين بحبك لهم . اريني تمزقك بين ان تسامحينهم او تنتقمين منهم . اريني لمن يكون دعمك ، لنفسك ام لهم . اريني العدالة كيف تكون انا لا اصدق ان الناس لا تؤذ الا اذا كان الانسان يستحق الاذى او هو ضعيف قابل للاذى تذكري انك تهشمين الزجاج بسهولة لكن ماذا عن تهشيم الحجارة ؟ واذا ما حل بي اذى فلن اتعلل بالناس . الناس ؟ حتى اذا قدمت لي الدلائل ، والبراهين انهم من اذاني فسوف اكذبها واذا اخذتيني الى المكان ورأيت بعيني الناس وهي ترمي رفي الابيض بالوحل فاني ايضا لن اصدق . وساقول لا شك ان بصري ضعف بل اني لن اصدق حتى لو اعترف الناس انفسهم انهم من اذاني فاني ساضحك فيا له من مزاح صديقتي اذا كانت هذه حماقة فاتركيني عليها عل سلامي يدوم . وسمعتها تشهق وكأنها تبكي منذ اعوام تأثرت لها اجل تأثرت وقالت :–

– عندما بدأ الناس يحيكون حولي ما تحيكه العناكب لم اهتم وقلت بحركة من يدي افسد عملها واعيدها الى نقطة الصفر وكنت انا قوية قوية والناس ضعفاء وخيوط اكاذيبهم او هي من ان تطوقني كنت اراهم يسهرون يفكرون في اكاذيب عني وتشرق الشمس وقد انتشروا في اشعتها يروجون اكاذيبهم وكأنها وقود الاستمرار . وانتشرت الشمس باشعتها وهم باشاعاتهم وعندما تكاثر الكل ضدي وتكاتفوا بدأت انظر الى الناس بخوف وقلق فقد عرفت الاغلبية اذا تجبرت وسلطانها اذا افترى يا ناس ، هل حقاً اثرتم حولي انا دخانا وانا لم احرق قشة ؟ وسرت اسأل البشر في الشوارع من منكم بشر ؟ من منكم لم يكذب ؟ ولماذا لم يفعل .؟ ومن كذب .؟ ومتى تكونت لديه فكرة الكذب .؟ بماذا شعر لحظة اكمل كذبته .؟ هل ندم هل تمطى ضميره او تثائب .؟ هل استطاع ان يجلس بمفرده في اي مكان .؟ او وقف امام مرآة هل يلعن البطالة لانها الشيطان الذي زين له الكذب .. او الفراغ او الملل هل سيأتي ويعتذر لي .؟ من هو .؟

وصمتت وهي تلهث انزلت حافة قبعتها وغطت عينيها العسليتين .؟

أمعقول حقا ما تقوله .؟ ان يظلم انسان بريء هكذا بدون سبب .؟ تراها اذنبت وتخشى ذكر ذنبها .؟ اجل لا شك ان هذا هو التفسير وسألتها :- باي اداة فعل بك الناس هذا .؟ اجابت بافعي سامة تتلوى ولا تهدأ حتى تضخ سمها في فريستها . بالسنتهم جعلوا من نعمة الله نقمة ادعو الله ليل نهار ان يهبني نعمة الانتقام وساظل بكل نعمي بدونها محرومة قالت هذا ونهضت لتبتعد لكني استبقيتها وقلت :- هل انت مقتنعة ان الانتقام هو الحل السليم .؟ اجابت بسخرية:- مقتنعة .؟ يكفي ان اكون قانعة لا مقتنعة بان هكذا تسوى الامور وهكذا يصير الظلم عدلاً اذا كان لا بد من ظلم اذا فلنظلم جميعاً . واذا تذكرت ان لكل ارض لغتها ولكل سكان ارض لغتهم فان لغتنا هي داخل افواهنا لغة ارضنا نحن ومضى خيال الحقل تاركاً في صدري تنهيدة ابت ان تخرج وكأنها مثقلة بالالاف من الاغلال . خيال الحقل هذا يحيا داخل حلقة مفرغة تضيق حتى تتحول الى طوق خانق . من ينجيها منه .؟ من يتركها تلتقط انفاسها .؟ من يتركها تنسحب رغم الخسائر وتنفذ بجلدها .؟ في هذه الحلقة المفرغة يسبقها بشر يلهثون من يرحمنا من رتابة اللهاث .؟ من يمسح من اجوائنا رائحة الغابات وعتمة الغابات عتمة العقول والقلوب . عتمة البصر كيف وسط الظلام تسطع كلمة الحق مهما كانت حق . والبشر الذين سبقونا في الطريق في العمر في الخبرة والذين تطلعنا اليهم نستجدي عونهم كما تستجدي الارض اليابسة غيثها لماذا خطوا فوق ارادتنا .؟ ولماذا ساوونا بالارض

لماذا اعتبروا اسمى اهدافنا مجرد وهم او سراب او فكرة عابرة . وفي سوق اليأس ساقونا لنبيع ابصارنا لاننا بها نرى الامل ونبيع حواسنا لاننا بها نتلمس فرحتنا المحتجبة خلف الغيوم وجعلونا - لا ادري كيف - نؤمن معهم ان الطاعة والصواب هو ان نمشي نمشي كسائر البشر ولا نكسر الحلقة المفرغة نمشي ولا نشذ حتى عن الخطأ . نمشي وكفى وسنظل ابدا نغتال الجوهر من اجل بهاء المظهر . ونكره المظهر ونغتال المتمردين لتظل الحلقة دائرية غدا او بعد غد تدور في الحلقة وحوش . تفترس كيانها وتبلع قلبها وتعب من دماها . غدا او بعد غد تدور في الحلقة مخلوقات لا تسمى بشرا . غدا او بعد غد آه كم سنفزع .

قطعت رحلة افكاري الجهة الثالثة فالتفت اليها شاهدت فتاة تجلس وقد اسندت ظهرها الى جذع شجرة واخذت تقرأ رسالة وفي حضنها كومة اخرى من الظروف . ناديتها :- انت! رفعت

عـينها الى الرف وهتفت - انا .؟ - اجل انت ، لماذا تجلسين وحيدة .؟ رفعت حاجبها في استغراب وكانها استنكرت تدخلي وفضولي فقلت لها بود : ما بك .؟ اجابت بحدة - لا احب الذين يسألونني ما بك .؟ لا اريد ان يسألني احد هذا السؤال . فاجبت بنبرة معتذرة :- اقصد هل استطيع مساعدتك .؟ هتفت : طبعا لا .! وبانفعال جعل اناملها ترتعش اخذت عود ثقاب واشعلته واخذت تحرق الرسائل ، اعرف ان احراقها يعني الرغبة في التخلص منها فما لتعابير وجهها تتألم كأنها تحرق رموشها . لم ادر كيف استدرجها لتتكلم ولكن عندما اغرورقت عيناها بالدموع وتهاوى صمودها قلت لها : لماذا تحرقينها اذا .؟ نظرت الي نظرة تقول اصمتي لكن لم تخرج من فمها كلمة ، واخذت تطعم النار الرسائل ، وهتفت - انتبهي كدت تحرقين اصابعك . فعضت شفتيها ونهضت مبتعدة تاركة السنة النار تعلو وتنخفض كايدي اهل بيت نزل بها حريق . مشت والتفجع يمشي امامها ويسبقها في الطريق احرقت الرسائل ؟ فمن يحرق الامكنة التي جمعتكما من يطمس ما هو منحوت هناك في اعماق القلب ومن يصرخ فيذهب صدى الماضي من مسمعك .؟ لكن مالي اتدخل في مالم تتكلم هي عنه .؟

تنهدت والتفتت الى الجهة الرابعة ولاخيرة لكنني الان مرهقة ومحبطة وحزينة فمن يسهر معي .؟ ومن يربت على رأسي ويظل محدقاً في وجهي حتى انام رأيت في الجهة الرابعة شابا يمشي وهو يمد معصماً نازفاً لاحظت ان يده قطعت اصابعها ولم يبق الا الابهام من خلف سور مهدم كانت تسترق النظر اليه فتاة تبتسم احيانا وتختفي احيانا اخرى وتعود فتظهر وتتابع خطاه وهي تدمع سألت الشاب - ما بك .؟ من فعل بك هذا .؟ اجاب:- المجرمة المعتوهة ولا شعوريا نظرت الى الفتاة احسست الكلمتين مشرطين يشقان وجدانها وهي في كامل الوعي وعدت اسأله :- من هي .؟ اجاب :- قالت انها نزلت من اجلي وانها لي مثل ما انا لها ولكني كنت صريحاً معها فقلت لها انها لا الاولى ولا الاخيرة فكان جزاء صراحتي ما ترينه .

رأيت الفتاة تسمعه بحنان فاضح وترمق الابهام بحب لم استطع ان احدد داخل نظراتها المعنى افوز ام ندم .؟ وسألته واي صراحة هذه التي افقدتك اصابعك .؟

اجاب :- قالت انها لم تكن لتنزل لولاي وانها لم تعرف سواي فشكرتها . سألته مستنكرة: - شكرتها .؟ اجاب :- اجل شكرتها فيا لها من متعة ان اضم الى مجموعة فتياتي فتاة انا الاول في قلبها وانا صاحب البصمة التي لا تنسى مهما بهتت . لكنها للاسف توقعت ان

اكذب وادعي انها الاخرى الاولى في حياتي والاخيرة ، وقد كنت صادقا معها فلا هي الاولى ولا الاخيرة لكني قلت لها انها المميزة واني متمسك بها وبهن جميعا لكنها الاغلى والاهم والاقرب الى القلب ولمجرد التشبيه قلت لها اني احب جميع اصابعي الخمس ولا استغني عن اي منها ولكنها الابهام لانه الاهم والاحب ، ولم اصح الصباح الا وقد قطعت جميع اصابعي ولم تبق الا الابهام الذي قلت لها انه هي .

ومضى الشاب محتاراً عند اي من حبيباته يضمد جراحه .؟ والفتاة تقف خلف السور وفي عينيها طاحونة تطحن الحب جنبا الى جنب مع القهر والغضب والحسرة فكيف يا ترى جمع قلب واحد الحب والحقد كيف غاصت العصافير في البحار ووقفت الاسماك على اغْصان الشجر كيف حدث هذا المحال .؟ كيف اجتمع وفي اي وضع على اي حال .؟

هذه هي الجهات الاربع وهذا ما كان فيها فيا لهول ما كان - يحدث وانا لا ادري . لماذا يحدث كل هذا .؟ وشد الرف عناقه حولي . شعرت اني اريد ان اعود طفلة مغمضة العينين وكان العناق غريباً ، يا رفي هذا الاحتضان حماية ام انك مثلي خائف تلتمس من خوفي اطمئناناً .؟ ازدادت قدماي ثباتاً كلا ما عدت اريد ان انزل . ولا عدت اريد رؤية عرش الاميرة يا سكان العالم الادنى .. حرام وأدتم في احشاء مستقبلي الفرحة الوليدة ، وشمسي الجديدة رميتم رمحكم في السماء فاصبتموهما كلا لن انزل .. ساظل فوق الرف اتمتع بالاجواء المفعمة بالمحبة الجماعية المعطرة بالنقاء . وساظل اسلو كل شيء في ينابيع الطهر والراحة والصفاء وبمجرد ان اتخذت هذا القرار ، بمجرد ان وطنت روحي على البقاء فوق الرف حتى الممات بمجرد ان حدث كل هذا سمعت صوتاً قوياً نظرت الى الاسفل فرأيت رجلا يشبه النساء او هي امرأة تشبه الرجال . منبت شعره متأخر فبرزت جبهته في قبح وعرى . كان لسانه ثقيلا او مثقلا بالكلام فكان باستمرار يرتمي في انهاك فوق اسنانه وعيناه بارزتان كأن الذنوب قد رفعتهما الى خارج محجريهما وكان بلا حواجب ولونه اصفر مخلوق بشع ابشع من الوصف كان يوجه كلامه لرجل آخر يقف امامه لكنه كان يقصدني انا . كان يتكلم عني انا كان مغزاه واضحا وبين الكلمة والكلمة يرمقني بنظرة ليرى ردة فعلي . يبتسم ابتسامة مقيتة ليجس نبضي يتمنى لو يشهد لحظة استشهادي وانا اقف مصلوبة من شدة الظلم .

وتمنيت لو اموت وكان يقول للشخص الذي امامه :- هيا يا صديقي وكف عن التمثيل .!

وهتف الشخص : انا .؟ انا امثل.؟

لكنه غمز للشخص وبذقنه اشار لي انا فهدأ الشخص .. وتجددت امنيتي . وواصل المخلوق الغريب قوله الآثم . مع كل كلمة ينطقها يكوم فوق ظهره ذنوبا اشد وافدح ومن بلاهتي اشفقت عليه .! وبدأ قوله :- كفاك يا صديقي فقد استهلكت قواك في تمثيل دور الطاهر والمرتفع . لا الطاهر فحسب بل والمترفع . يا للسخرية .! كف عن رفع رايات المبادىء والاخلاق لانك ستنهار من رفع ما تمقته في قرارة نفسك كنا جميعا نصدقك كنا كلنا مغفلين ولكنا اصبحنا نعلم ماذا تفعل فوق الرف . باي الرفاق تبدد وحدتك واي زوار تستضيف . كلنا متأكدين من اي منابع الضحك تملأ صدرك تقهقه من الحمقى الذين يصدقونك وقوفك الطويل هذا كاذب . انت لست مختلف عن سواك . مثلك مثلنا وكل ما فيك فينا . لست اطهر منا ولا اشرف . ما عادت وقفتك الابية تثير ضدنا ضمائرنا . ما عاد احد يحترمك لانك لم تعد محترماً لا تحزن كثيراً فكل شيء فان يفنى الحب ويفنى الحزن ويفنى الهم والعمر ، فما الاحترام حتى يخلد .؟ انكشف امرك فلما لا تنزل .؟ قد علمنا انك تجرب الضحك مع هذا ويحلو لك ان يصدق حديثك ذاك . فتدخل ممرا وتتخبط فيه فتقنع الكل انك مبتدىء وتخرج منه لتدخل في آخر وتكون انت المرشد والدليل . انزل فقد اسدل الستار انزل فقد ...

أكمل الرجل اتهامه الطويل . هل حقاً اكمله .؟ ام فقدت قدرتي على الانصات والاستيعاب .؟ اجل اجل لم اع مما قال جملة ولا عبارة ولا كلمة لكني حتماً اعي ان خلاصة ما قاله ترك في صميم روحي احساس قوي بمذاق اليتم والاهانة والجرح فهل كنت يا روحي تتخيلي ان لهذه الاحاسيس طعم يذاق .؟

ورفع الرجل الغريب عينه لاول مرة نظر الي مباشرة وقال:- هيا انزلي وكنت مذهولة وغير مصدقة . واردت ان اهرب فلم اجد من يخبئني في صدره ولا فتح لي احد جيباً لاقفز واتخفى في ظلامه وسمعت صوتي يقول :- من .؟ أنا .؟ اجاب :- اجل انت حقاً ان كل انسان خبير بما في سره وباطنه . هيا انزلي الى العالم الادنى كما تسمينه .

قلت :- هل تقصدني انا حقاً .؟ اجل انت لكن على اي اساس تكلمني هكذا وباي حق تتهمني اتهاما شنيعا كهذا . اين الدلائل واين البراهين واين الـ .... قاطعني باستخفاف :- وكأننا في محكمة .! ما نحن الا في المجتمع . في العالم الادنى كما تسمينه . والكل هنا

يتحدث عن ما تفعلينه وانا لن اسمح لاي مخلوق ان يعاملني كساذج احمق ما عدنا نصدقك وخاصة ان هناك من رآك وقالوا ان ... رآني .؟ باي عين رأي . وباي لسان افترى .؟ هذا غير صحيح .

- ما الصحيح اذا .؟ وقوفك الطويل هذا .؟ قلت - اذا كنت غير قادر على تصديق ان الدنيا لا زالت بخير فهل يجب ان اكون السوء والرداءة حتى لا اخيب توقعاتك .؟ اجل اجل وقوفي هو الصحيح ، ايها المخلوق المريب ، من قال عني ما سمعته منك ولمّ قال هذا .؟ لمّ .؟ سؤال لا يلجم جموحه الا حدود السماء ولمّ .؟ ومن المستفيد من هذا الأذي .؟ يا رفي لا تصدقهم ولا تصدق بعد اليوم ما ترى . فقد يكون تحت الارض حفرة ولا تعرف لمّ وقد يكون في صدر الحبيب صخرة ولا اعرف لمّ ، وقد تكون ينابيع العسل مرة ولا نعرف لمّ ، يغتابني احبائي القريبون فاذا ما اشتكيت لهم من بعضهم تجاهلوا انفسهم وزينوا نواياهم وقالوا دعك منهم خلقك الله حرة . يا سادتي . اذا كانت هذه القسوة هي البداية اخاف ان تكون هي القطرة ها انا اتطلع نحو السماء . واسألها وماذا بعد .؟

اجاب الرجل :- انا مقتنع ان ما سمعناه جميعاً هو الحقيقة ولم اصدق ما قلتيه ولا سيصدقك احد .

اواه .. من أعماق القلب يا رفي اتركني ابكي فقد اخرستني العبرة . وقوفي بكل ماضيه وحاضره . ومستقبله قد تشوه من رماك يا رفي الابيض بحفنات الطين .؟ اصابك بالوسخ وان لم تلتصق بك حفنة واحدة يا رفي . سأذرف الدموع ولن اكل من البكاء وساظل طوال ما تبقى من عمري امسح آثار الوسخ ليس وسخ الطين بل وسخ الاتهامات سابكي فاتركني لاني قد ظُلمت والظلم اقسى من ان تعبر عنه الكلمات .

أعود لاسأل من يسهر معي .؟ من يربت على رأسي .؟ من يعلم هؤلاء الناس .. واذا نام من هم مثل الاطفال في برائتهم من يحدق. من يكون الحارس والحامي من ما هو بعد .؟

العدو العاشق

اريد ان اضحك كثيراً ... اضحك كما لم اضحك ابداً ولا ستضحكني الا الايام الاتية كما تضحكني الان فقد رأيت بعيني من يحاول ان يقطف زهرة من بين كومة اشواك . الا يرى انها محاطة بالأسلحة ؟ وإنها محاصرة بما يشبه الاسلاك ، ربما لترد عنها الاذى ، لكنها بالمقابل أميرة حراسها . وهذا الذي يريد ان يحررها ما هو الا عدو ولا بد من مواجهته بالأيدي ، بالأشواك ، بالمدفع وحولها لافتات كتب عليها «ابتعد» وعلى الاخرى «ارجوك ارجع» افلا يضحك هذا فعلاً ؟ الا يدري هذا العدو العاشق انه قد يدمي يديه الف مرة وفي نهاية المطاف لن يستطيع قطفها ؟ فلماذا لم يسألني ؟ لعله كان يقرأ في الضحك كل الجواب وكان علي ان اشيب وامسك بعصي كي يثق بشورتي وكنت ساقول له : قف على بُعد مسافة تأملها بكل ما في عينيك من لهفه ، اشتهه قطفها بكل ما في صدرك من اشتهاء اعشقها بكل ما في قلبك من حب ، وعش ان شئت في غياهب الهيام ولكن في النهاية استمع لصوت العقل وابتعد برغم التأمل والإشتهاء والحب والهيام افلا يُضحك هذا فعلاً ؟

انا اضحك لأني ارى هذا العدو العاشق وقد ادمى معصمه ونزفت جميع اصابعه . ارى رأس كل شوكة وقد غطتها الدماء . ارى الزهرة بين الاشواك قد اختنقت من عنف المحاولات وهزلت وذبلت ، وهو مُصر ان يقطفها كزهرة بيضاء عطرة ، مُصر ان يقطفها وفي صدرها برغم القلب ، مُصر ان يحررها ويفك أسرها ، مُصر ان يقتلها ، ان يميتها ولكن ... من شدة الحب . افلا يضحك هذا فعلاً ؟

ادار وجهه والتفت الي من فوق كتفه . رأيت ملامح وجهه تطحنها طاحونة الأمل ، ولكن تعابير ملامحه تحولت الى ذرات يأس على جانبي عينيه . وتقطيبة الجبين ذكرتني بالعجين حين تضربه ربة البيت غاضبة متعبة ولكن ماهرة . وغلبني الضحك ، فضحكت لكل تلك الافكار . رأيت تعابير وجهه تتحارب على إحتلالها جنود العند مره وجنود الاستسلام مرارا . حاولت ان اكتم ضحكي ورفعت يدي الى فمي لكنه كان قد سمع ضحكي وكنت قد استفزيته دون ان اقصد . مسح بباطن كفه العرق عن جبينه وسألني بنبرة تشي بأنه كظم الكثير من غيظه .

– ما الذي يُضحك ؟

وبدلاً من ان اعتذر وبجدية استغرقت في الضحك حتى امسكت على صدري محاولة ان التقط انفاسي فنهض العدو العا شق واصابعه تنزف وسألني وهو يقف بجانب الأشواك التي تحوي الزهرة . الا تخبريني ما الذي يضحك ؟!

ولجمت الفرس الجامح واجبته ومن يضحك ؟!! اما عدت حقاً تفرق بين الضحك وال ... ؟

فنظر الي بانزعاج مصدره انه خاف ان يكون واقفا وجها لوجه امام مجنونة . اما انا ... فبلعت ريقي لأبدل من طعم السخرية المرير الذي بات قرصاً نتناوله جميعاً لنرتفع فوق العراقيل ، نتجاوز العقبات . نتناوله لنتحمل ما لا حيلة لنا على مواجهته بالحل . اعطاني ظهره ومال امام كومة الأشواك وسمعته يهمس فلم اصدق انه يكلم زهرة . وخشيت اذا ما استدار الي ان اكون انا الواقفة وجها لوجه امام مجنون وعاد سلطان الضحك فغلبني وهنا التفت هو وقال بحدة : لا بد ان اعرف ما الذي يضحك ؟

اجبته : اعذرني ... لقد ذكرتني بقصة قديمة واضحكني الشبه بينك وبينها . فنظر متظاهراً بالاستخفاف : قصة قديمة ؟ وذكرتك بها انا ؟ ما هي ، هل لي ان اعرفها ؟ قلت : ليس قبل ان تكف عن التظاهر بالاستخفاف ، انت تريد ان تعرف القصة فلما لا تطلب هذا باهتمام ؟

اتسعت عيناه ، اتسعت ابتسامته وتلتها ابتسامتي وكأنها عدوى وقال : حسناً ، هل تروينها لي ؟

قلت : تحاول انت ان تمزج الزهرة بين الأشواك . ادميت معصمك واصابعك تنزف ولطخت الاشواك والزهرة البيضاء ايضاً بالدماء . اضعفت قوى الزهرة من طيلة ما استهلكت انفاسها وقوتها وهي تحاول ، في كل مرة تحاول فيها انت ان تخرجها ، ان تخرج على يديك من بين الاشواك . لا انت تيأس وتتركها فتيأس هي الاخرى وترضى بحياتها وتعيش ولا انت قطفتها وحررتها فتفرح وتعيش . قاطعني قائلاً : هذه قصتي انا وانا اعرفها ، فاين القصة التي ذكرتك بها ؟ لم اصل بعد لسبب الضحك .

فعضضت على شفتي واجبت : انها ليست قصة وانما مقوله او مثل . لقد شبهتك بمن يحاول ان يحلب ثوراً .

و بسرعة رفعت يدي لاكتم ضحكي . ليس في الامر نكتة لكن صار يضحكني الكثير شأنه شأن النكات . اما هو فتبدلت ملامحه اللطيفة التي كان قد اكتسبها ونظر الي وكأني

اهنته ، وكأني صفعته . وبغضب انصرف .

رأيته يهبط إنحدار الجبل بمهارة انسان يذرع الجبل صعوداً ونزولاً مرات عديدة نظرت الى الزهرة ، انحنيت بجانبها . هي فعلاً جميلة ، فكيف عسى جمالها يكون اذا ما كانت هي جميلة ؟ فوق العشب وبين الزهور والزنابق وصفوف الورد الملونة . تأملت محيطها ، كومة اشواك كبيرة جداً في قمة جبل اجرد ومباشرة تحت السماء . تأملتها ... ليتك تتكلمين ليتني اسمعك تتمنين ، او اسمع منك الشكوى او حتى اسمعك تئنين . ليتني استطيع اي شيء من اجلك .... او من اجلي ، ليتني استطيع . هل هي قوة ، ان لا تنحازي للفرح ولا للحزن ، ان لا تغضبي ولا تهدئي ، هل هي قوة ؟ فاني اذاً ... لا افهم ما تفهمين . وقبل ان انهض لانصرف كان العدو العاشق قد عاد .

كان قد غسل اصابعه وضمد معصمه برباط ابيض . ترى لماذا عاد ؟ وشعرت بالشفقة تتدفق من قلبي لتغمر قلبي كدت انهض لاواسيه ، وبسرعة سعلت لاطرد الشفقة واخرجها . فمن يمقت ان يشفق عليه مخلوق لا يحب بالتالي ان يشفق على احد او فليشفق على سواه في سكون وكتمان . صمت وانا اراقبه . ترى هل عاد بالحل ؟ هل وجد للزهرة سبيل ؟ كان بين يديه ورقة . تابعته بتوتر وقلق وانا احبس انفاسي . تحولت الى كتلة اعصاب لكنه صدمني بما فعل ! صدمني ... فعلاً . فقد فتح الورقة واذا بها ورقة طويلة تدلت حتى ركبتيه واذا به يقرأ للزهرة قصيدة ! فهل نفذت الحلول ؟ لما تخلي عن القضية بعد ان علمني الايمان بها ؟ وماذا يقول ؟ «ايها الملاك ، ايها الـ ...» اهذا ما تقوله القصيدة ؟ اهذا كل ما تقول ؟

بدا منظره مضحكا وهو يقرأ بتأثر وإحساس لدرجة اني ذهلت ولم اضحك . انه يقرأ للزهرة الأشعار فمتى افادت لتفيدها ؟ والتمع في عينيه بريق ، كأنه سكين لكنه كان ربيعاً فنهضت وصرخت فيه بماذا ستفيدها الاشعار وهي اسيرة الأشواك ؟ غزلك وعشقك قد يفرح زهرة حرة ... اما هذه فسوف تلعنك وتحقد على الكلمات لكنه كان بلا حيلة سالت دموعه ، كأنها تنتحر يائسة وهو يرمي الورقة على الأرض . و ركض هابطا الجبل . لا ادري لماذا تاثرت ؟ الأني جرحته ؟ الأن الزهرة بحاجة لما هو اقدر من الشعر ؟ التفت الى الزهرة ... هل تحسين بما يجري من اجلك ؟ ام ان الاماني انعالية جداً ، من شدة علوها تكاد لا تشعر بما يُبذل من أجلها على الارض ، ايتها الزهرة هل تحسين ؟

وبرغم قبضة الضيق والحزن سرعان ما عاد قرص السخرية يذوب في فمي ويترك فيه طعم اللامبالاة واللامبالاة . فقلت لنفسي ما هذا ؟ يقرأ لها القصيدة وكأنها تسمع ، وانا اعاتبها واسألها وكأن لها صوت لتجيب ، ماذا يحدث لنا ؟ تذكرت منظره وهو يفر كطفل هارب من فعل مخز اقترفه فضحكت بشدة . كنت ادري انها زهرة واعلم تماماً انها أكثر . ومع ذلك صار للضحك اياد اخطبوطية . الأولى مسحت صدري فزال التأثر ووجدتني احتقر الزهرة والعدو العاشق اليد الثانية اسقت بداخلي بذور اللامبالاة بكل شيء . الثالثة قلبت الموازين المتعبة فبدت الزهرة هي العدو للاشواك لانها تحيا داخل الاشواك المسكينة وتذكرها باستمرار بقبحها ودمامتها . اليد الرابعة جعلت الحياة بأسرها نكتة رائعة مروعة . الخامسة كنست الاهتمام باي شيء ومسحت الدموع و .... و .... اما اليد الأخيرة فقد صافحتها وصرنا انا وضحكي ... اصدقاء .

بدأ الليل يهبط ساحراً وبديعاً وانا اجلس فوق قمة الجبل بجانب كومة الاشواك ، نظرت الى اسفل الجبل ، الى قاع الوادي السحيق رفعت رأسي الى السماء ، مرصعة بالنجوم ، بدا بعضها قريباً جداً . اعرف اني لن امسك بين اصابعي الا الهواء ومع ذلك فعلت . سرت برودة بين اصابعي الا الهواء ومع ذلك وكأنها خصلات شعر جليدية مرت بين اصابعي . نظرت الى الزهرة بين الاشواك . هل تشعرين بالبرودة ؟ هل يهاجمك البرد من بين منافذ الاشواك ؟ هل يؤلمك هذا العناق ؟ هل نام حراسك ايتها المنسية ؟ ايتها الاميرة ، هل نام الحراس ؟

فانا اريد ان اكلمك ... ان ابوح لك بسر . على الرغم من كونه سر فانه ليس إلا إحساس . لا ادري لماذا وجد ، او متى نما وكبر غير اني المس وجوده واخاف اذا حكيته ان تتفرق الجموع ، فاكون كمن فتح محارة ووجد لؤلؤة واهداها للبحر مرة اخرى متوقع منه الثناء والتعويض . لكن البحر مثل الجوع .

احس باني جبل ، برغم الأصوات والوجوه التي لا تنقطع ، لا اهرب منها ، لأني اذا هربت اجدها معي تتوه . واؤمن اني جبل . لماذا ؟ لماذا احس باني جبل ؟ الأني احتلت بداخلي الكثير ؟ الأني صبرت على المطر والريح ؟ الأني اصبر منذ الازل ؟ لماذا ... لماذا احس اني جبل ؟

الأني من شدة الذهول ما عدت اذهل ولا اضيق ولا اذكر حتى التململ لأني ما عدت اذكر

كيف كيف ابكي ... ولا كيف يقتلع الجبل من جسده لون الفشل لأني جبل ...

واحتار ... ايتها الزهرة قولي لي ، هل رأيت جبلاً له في الأحداق لون العمل ؟ في الأعماق ضحكة لم تكتمل او هي لم تولد . على الثغر لون الكروم وفوقه تزهر القبُل . لكن لا شيء يغادر شباك هذا الجبل . هل سمعت عن جبل له خصلات شعر ؟ له اكتاف تحمل ما بين الرضى والتمرد حكم القدر ؟ واذا تهادت الليالي الساحرة ، يقف على اطراف اصابعه ويحاول التقاط القمر . ايتها الزهرة ... لماذا احس باني جبل ؟ وهل تذكرين انك سمعت عن جبل ودع على الشاطيء كل الامنيات وتابع ابتعادها في السفن حتى الاختفاء و .... ارتاح . وحين حن للأمنيات وعزم على ضرورة تحقيقها .... كان قد فات الآوان . فتمنى لو كان نورساً في قلب السماء او زورقا او ريشة او ورقاً ليلحق بالامنيات . يقولون الامسيات اذا تحققت تحول الجبل الى نهد يسيل ماء .

فجأة بدد رتابة صوتي ... صوت خطوات تصعد الجبل . ابتعدت عن الكومة شبه مقتنعة الى زهرة ما كانت لترد على واذا به العدو العاشق ! فلماذا عاد ؟ لم يستطع شيئاً في وضح النهار فهل يقوى على السير في هذا الظلام ؟ حاولت ان لا اصدر اي صوت كي لا ينتبه لوجودي تأملته بترقب واشفاق اخرس ومكمم ايضاً . رأيته يلهث وبهدوء غريب امتد بجانب كومة الاشواك وضم كفيه تحت رأسه وتوسدهما واغمض جفنيه ماذا ؟ عاد لينام ؟! ومن شدة ما استنكرت ذلك نهضت دون وعي او تفكير في ردة فعله وهويت بكفي على زنده وهززته بعنف . فتح عينيه بذعر وهتف : انت؟ اجبت : نعم ، انا . هيا انهض . لا تيأس . ساحاول معك . سنخلصها من الاشواك .

قلب شفتيه وقال شامتاً : وهل يحلب ثور ؟

وسرت برودة مُبرة سؤاله في شراييني .. وكدت اخبيء وجهي بين كفي بحثاً عن الدفء . لكنني عضضت شفتي في خجل . نظرت الى الزهرة نظرة جديدة . قد اسرني حبها انا الاخرى . قد تفجرت داخلي رغبة قوية في تحريرها صرت مهتمه بها و احطتها بكل حرصي . صرت اريد وبشدة وصدق ان اراها حرة وسعيدة اشتهيتضمها الى صدري . لماذا احببتها ؟ يا للغرابة ، انا حقاً لست ادري .

وعاد ليتشفى : ماذا قلت ، هل يحلب ثور ؟

حاول ان يقلد ضحكي . غير اني وضعت يدي حول معصمه المضمد واجبته : كلا ، ولكن دعنا نحاول .

يا للسخف ، يا للسخف . ومن تعابير وجهه ادركت اني آلمته فابعدت يدي بسرعة وأسف عن معصمه المجروح . ونظر الى معصمه المجروح . ونظر الى معصمه ثم نظر الي ونظرت اليه دون ان اتكلم ولا هو نطق . تعلمت منه حبها وتعلم مني ان نعمل من اجلها . ونظرنا الى الزهرة ... ولو كانت النظرات تحضن لهتفت في غمرة سرورها « كفى ، كفى » . كانت الزهرة بيضاء برغم عتمة الليل . كان نورها اقوى ضياء . اقوى من الشموع ، اقوى من الفوانيس اقوى حتى من الاقمار . اقوى ضياء لأنه نور الأمل . لأن ضياءها هو تعبيرها عن أملها في البقاء والحرية . لأن ضياءها اقوى نور يقهر عتمة الاشواك . فاح عطرها من خلال الأشواك فبدى نفاذاً في هواء محايد لا رائحة فيه . جلس وجلست وتكلمنا عن الزهرة حكى لها عن اطوارها وتاريخها ... عن فقدانها لظلها .. وافتقارها لأشعة الشمس وسمعته لأستجمع المعلومات ممن عرف الزهرة قبلي . لكني باهتمامي لحقت به وتشاركنا الاهتمام بها وبمصيرها .

قلت له : ليست المأساة الا نستطيع ان نخلص هذه الزهرة من اشواكها .

فسألني معترضاً : فما المأساة اذاً ؟

قلت : ان نكف عن محاولتنا ...

اجاب : كلا ، بل ان استمرار محاولاتنا في النهاية كالمأساة اذا كانت لا تنتهي والزهرة حره بين يدي ويديك .

ونظرنا الى الزهرة ثم الى ايدينا . لم اكن مقتنعة بما قلته بل بما قاله هو ولكني خفت اذا لم نقطف الزهرة بعد محاولة او محاولات عديدة ان ينام . فقد كان قادما لينام قبل قليل . وانا لا زلت في اول المشوار . لا زال حبي للزهرة حباً غريباً وجباراً . كأن قلبي نبتت فيه زهرة .. ارفضها لانها نبتة غريبة في جسد من دماء وعظام وشرايين ولكني احبها واحب غرابتها واتلهف لليوم الذي تصير فيه من ضمن قلبي !

والتفت اليه وقلت بجدية : إسمع . ما رأيك ان ننتزع هذه الاشواك شوكة شوكة ؟ اجاب : لكن هذا سيأخذ منا وقتاً طويلاً وتنخزنا الاشواك بعدها . انظري كم هي مسنونة ومتشابكة وكثيرة .

ما العمل إذاً ؟

اجاب : ما رأيك ان تزيحي عنها الاشواك من الجانبين بكلتا يديك وانا امد يدي واقطفها بسرعة .

واعترضت قائلة : لكن بهذا تخزني الأشواك وتمزق جلدي وانت تتناول الزهرة بكل امان ولم يبـــــــد عليه اني اخجلته، مسح طرف ذقنه وهمس : ما الحل اذا ؟

اجبت : نتقاسم الالم كي نتقاسم متعة الفوز حين نقطفها .

تساءل : كيف ؟

اجبت : لنتماسك ونتجلد وندس قبضتينا في قلب الأشواك ونقتلعها قلعاً . سيكون الالم فظيعاً ولكنها مرة واحدة وحاسمة . فزفر بانزعاج وقال : انها فكرة يرعبني مجرد تخيلها . هذا غير ان ذلك سيهلك الزهرة ولن نخرجها الا لنحملها في نعش فوق اكتافنا .

ومن شدة اليأس سمعت ابواب عديدة تغلق بعنف وبقي واحد اغلقتها : اما انا ... بصراحة احترت .

وصمت انا وصمت هو . لا ادري كم مضى من الوقت ونحن صامتان . فقد سحبتنا الحيرة نحو اعماق بعيدة خالياً وبارده ، ولم نرجع منها الا حين سمعت نحيباً خافتاً جداً ، رقيقاً جداً ، شجياً جداً . فالتفت اليه والتفت الي . من اين وصل الينا هذا النحيب ؟ كلا لم يكن صادراً عنه وهمست : ولا هو صادر عني .

ترى من ينتحب هذا النحيب الذي يشبه اللحن . كأنه يصدر من صدر أم الأحزان جميعها .. كأنه يأتي من صدر شفاف اكاد ارى فيه القلب ينبض وطويل ممطوط لا يصدر عن صدر يتنفس ، فلا نفس – يحتمل هذا النحيب الغريب . تلفتنا حولنا . وفجأة ميزنا ببقايا تركيزنا المأخوذ ان النحيب يأتي من جهة الزهرة . شهقت من شدة الدهشة وحملق هو في الزهرة بحدقات اتسعت ذهولا . همست في اذنه : انها تبكي .

اجابني بذات الهمس : انها تسمع وتحس . ما كان يجب ان نتناقش على مقربة منها لقد عذبتها الاقتراحات .

والتفت الى الزهرة ورفع همسه حتى صار صوتاً منخفضاً مسموعاً : هل تريدين ان نتركك؟ فاحيانا يكون في اليأس ...

قاطعته انا مكملة : احيانا يكون في اليأس راحة . فهل نتركك ؟

ولكنها لم تجب ، اجابنا النحيب . فما عساه يحوي من ردود ؟ اما انا فقد رأيت الدموع وسمعت النحيب في الماضي فمالي وكأني افعل لأول مره . لما اصاب بكاها قلبي في «الصميم» ؟ مالي احس دموعها تسيل في اخاديد كياني وكأنها حمم نار ؟ لماذا مددت اصابعي وجرحت يدي لأني كنت اريد ان امسح واربت عليها ؟

ما لي اكاد اضحي بكل شيء من اجلها .. اكاد اهوي بقبضتي فوق الكومة . ما لي قبلت ان اخاصم ضحكي من اجل ان احتضنها بشدة الى صدري ؟ اردت ان اغني لها غير اني خفت اذا ما نطقت ان تشجيني المعاني وتخذلني النبرات فابكي .

في تلك اللحظات ، اين القرص ، اين الأيادي الاخطبوطية واين انت يا ضحكي ؟ قال لي: اريد ان انقذها ، ان تنام على زندي . فوق كفي تسافر الى الخميلة الى حيث لها حياة واسرة، مثلها جميلة وتحيا بلا حراس .

وارتفع صوت النحيب . هوت كلماته على جرحها ... فاغرقته .

ونفذت الينا رائحة العطر رأيت الرؤوس المسنونة تقطر دموع الزهرة دمعة قطرة .

ايتها الاشواك ، الا قلب لك ، الا ترحميني ؟ هل تمقتين ان يشفق عليك أحد ولذا لا تهبين العطف لاحد ولا تشفقين . رفعت رأسي الى السماء وهتفت : يا الله هبنا من لدنك ذرة خلاص .

هتفت : ربنا ان اسرها يعذبنا ومحاولاتنا بلا جدوى ، محاولاتنا تعذبها . يا الله مدنا بالعون عاونا لنعاونها .

لا ادري اي فكرة ثمله ترنحت في متاهات رأسه والقت بأمرها ، ففي تلك اللحظة مد يده بسرعة الى جيبه واشعل عود ثقاب والقى به بين الاشواك فاشتعلت في برهه . صرخت بعلو صوتي غير مصدقة ما اراه بعيني جثوت انفخ وانفخ . وكان هو يضحك ! ملأت قبضتي المتشنجة بالتراب ورميته فوق الالسنة اشتعلت الاشواك ، اجل واشتعلت معها الزهرة وارتاحت اما نحن فبسبب من نرتاح ؟ تصاعدت رائحة الدخان وغلبت العطر وصاحبته وتحولت الكومة والزهرة الى رماد . لم انتبه ان نفخي غير مجد وان النبض في معصمي يرتعش ... تعبت انفاسي وكنت لا ازال انفخ نفخاً كسيراً ، ضعيفا ، واهنا وكأنه مزاح . فهتف لي وهو يقهقه :

تصفرين ؟ وصفر هو مترنماً بلحن مميز . كلا ، لا اريد ان اصدق . احرقتها ؟ احرقت الزهرة . من يصدقني اذا ما رويتها ... جعلت منها اسطورة او كذبة ومني انا مجنونة . احرقت الزهرة ... ونحن من كنا مستعدون للكفاح من اجلها . هل احرقتها ... بل هي من هذا الرماد ستنبت وتزهر . من هذا الظلام ستشرق ومن قلب هذه الجمرة ستحيا الجبال التي تصهر احجارها حمم البراكين تعود وتبرد وتنبت فوق الاعشاب والاراضي التي تشرخها الزلازل تعود فتلتئم وترتفع فوقها الديار ومن هذا الرماد ستنبت الزهرة .

سمعني بهدوء ، احنى جبينه وتنهد . اتراه الآن ادرك ما فعل ؟

قال بهدوء وبرود : اما الآن فاتركيني انام . لقد صعدت لانام لكنك فجرت اللوثه في رأسي فانظري ماذا حدث بسببك ؟ انظري ماذا فعلتِ ؟

فصرخت : انا ؟!!

لكنه تجاهلني وتوسد كفيه واغمض عينيه . اما انا فاعرف واثق انه سيرى داخل جفونه المسدلة الزهرة وهي تشتعل وسيسمع مهما سد اذنيه نحيبها .

لذا فان الـ ...اريد ان اضحك . فما دمت لا ابكي فلا بد اذاً ان اضحك لأني اريد ان اضحك كثيراً ، اضحك كما لم اضحك ابداً .

